

ضحايا حرب التجسس

رمضان مصطفى سليمان



الرحلة التي كادت تُشعل حرباً عالمية مأساة الطائرة الكورية عام 1983 بين الخطأ البشري وهشاشة العقل السياسي

حين يضيع طريق طائرة فيرتجف مصير العالم

في تاريخ البشرية لحظات قليلة بدت فيها الأرض وكأنها تقف فوق خيط رفيع يفصل الحياة عن الفناء، والسلام عن الحرب، والعقل عن الجنون. لحظات لا تبدأ دائماً بإعلان حرب أو إطلاق صاروخ عابر للقارات ، بل قد تبدأ بخطأ صغير لا يلتفت إليه أحد في البداية ، ثم يكبر ككرة ثلج متدرجة ، تسقط من عل فتكبر، حتى يهدد مصير أمم بأكملها.

ومن بين تلك اللحظات المروعة تبرز حادثة إسقاط الطائرة الكورية الجنوبية الرحلة رقم 007 في الأول من سبتمبر عام 1983، باعتبارها واحدة من أكثر الحوادث الجوية تأثيراً في التاريخ المعاصر. لم تكن مجرد مأساة إنسانية راح ضحيتها مئات الأبرياء ، بل كانت مرآة عاكسة لقلق عصر كامل عاش تحت ظلال الحرب الباردة بين القطبين (أمريكا و الاتحاد السوفييتي)، حين كانت الشكوك أقوى من الحقائق، والخوف أسرع من الحكمة ، والقرار العسكري أسبق من صوت الضمير.

لقد كانت رحلة مدنية عادية تحمل مسافرين يحملون بالعودة إلى منازلهم بعد غياب ، يحملون بدفء الأسرة ، لكنها تحولت في ساعات قليلة إلى مأساة عالمية كادت أن تشعل مواجهة بين أعظم قوتين نوويتين في القرن العشرين.

>

الحرب الباردة: عالم يعيش على أعصابه

لفهم ما حدث، لا يكفي النظر إلى الطائرة وحدها، بل يجب النظر إلى السماء السياسية التي كانت تعلق فيها.

في مطلع ثمانينيات القرن الماضي ، كان العالم منقسمًا إلى معسكرين متواجهين: الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها من جهة، والاتحاد السوفيتي من جهة أخرى. كانت الحرب الباردة قد بلغت مرحلة شديدة الحساسية، حيث انتشرت القواعد العسكرية والصواريخ النووية وشبكات التجسس في مختلف أنحاء العالم.

لم تكن الثقة موجودة بين الطرفين ، بل كان الشك هو اللغة الرسمية غير المعلنة. وكل حركة تُفسَّر باعتبارها تهديدًا، وكل إشارة قد تُقرأ بوصفها استعدادًا لهجوم محتمل.

في مثل هذه البيئات المتوترة ، يصبح العقل الجمعي للمؤسسات العسكرية شبيهًا بشخص يعيش في غرفة مظلمة ، يسمع الأصوات من حوله فيتصور الأشباح في كل زاوية. وهنا تكمن الخطورة ؛ إذ يتحول الخوف من وسيلة للحماية إلى أداة لإنتاج الكوارث.

>

رحلة اعتيادية تبدأ كأي رحلة أخرى

في مساء الحادي والثلاثين من أغسطس عام 1983، أقلعت طائرة الركاب التابعة للخطوط الجوية الكورية الجنوبية، الرحلة رقم 007، من مدينة نيويورك في طريقها إلى العاصمة الكورية سيول، مع توقف مقرر في مدينة أنكوراج بولاية ألاسكا.

كانت الطائرة من طراز بوينغ 747، أحد أكثر الطرازات أمانًا وتطورًا في ذلك العصر. وعلى متنها 269 شخصًا، بينهم رجال أعمال وطلاب وأطفال وعائلات كاملة، إضافة إلى أفراد الطاقم.

كان الركاب منشغلين بأحاديثهم وأحلامهم الصغيرة. بعضهم يقرأ كتابًا ، وبعضهم يشاهد من نافذته امتداد السحب البيضاء كأنها بساط من الثلج، وآخرون يخططون للقاء أحبائهم عند الوصول. لم يكن أحد يتخيل أن الرحلة التي بدأت بروتين السفر المعتاد ستنتهي في أعماق البحر.

>

الخطأ الصغير الذي غير كل شيء

من منظور علم النفس المعرفي ، كثيرًا ما تبدأ الكوارث الكبرى بسلسلة من الأخطاء الصغيرة غير الملحوظة.

تشير التحقيقات اللاحقة إلى أن الطائرة انحرفت تدريجيًا عن مسارها المحدد نتيجة خطأ في نظام الملاحة وإعداداته. لم يكن الانحراف حادًا أو مفاجئًا، بل حدث بصورة بطيئة ومتركمة.

وهنا يظهر ما يسميه علماء النفس بـ "العمى التدريجي للأخطاء"، حيث تصبح الانحرافات الصغيرة مألوفة مع مرور الوقت فلا تُكتشف إلا بعد فوات الأوان.

استمرت الطائرة في التحليق مبتعدة عن الممر الجوي المقرر، حتى دخلت المجال الجوي السوفيتي فوق مناطق ذات حساسية عسكرية بالغة، تشمل شبه جزيرة كامتشاتكا ثم جزيرة ساخالين.

كان الأمر بالنسبة للطيارين مجرد رحلة تسير في السماء، لكنه بالنسبة للرادارات السوفيتية بدا شيئًا مختلفًا تمامًا.

>

عندما يرى الخوف ما لا تراه الحقيقة

التقطت أنظمة الرادار السوفيتية هدفًا مجهولًا يقترب من مناطق عسكرية استراتيجية.

في ذلك الوقت، كانت الولايات المتحدة تنفذ بالفعل عمليات استطلاع ومراقبة بالقرب من الحدود السوفيتية، وكانت طائرات التجسس الأمريكية معروفة لدى القادة العسكريين السوفيت.

لذلك لم يُنظر إلى الجسم الطائر باعتباره طائرة مدنية محتملة، بل باعتباره تهديدًا آمنياً.

هذه الظاهرة تُعرف في علم النفس الاجتماعي باسم "التحيز التأكيدى"، وهو ميل الإنسان إلى تفسير المعلومات الجديدة بما يتفق مع مخاوفه وقناعاته المسبقة.

لقد كان القادة السوفيت يتوقعون وجود طائرة تجسس، ولذلك رأوا طائرة تجسس.

وكانوا يتوقعون خطرًا أمريكيًا، ولذلك فسروا كل المعطيات وفق هذا التصور. هكذا تصبح الصورة الذهنية أقوى من الواقع نفسه.

>

القرار القاتل

مع استمرار الطائرة في التحليق داخل المجال الجوي السوفيتي، أرسلت مقاتلات لاعتراضها.

أقربت الطائرات العسكرية من الهدف، بينما كانت الدقائق تمضي ثقيلة ومشحونة بالتوتر. وفي غرف العمليات العسكرية كانت الشاشات تضيء والاتصالات تتوالى والأوامر تتدفق.

في مثل هذه اللحظات لا يعمل الإنسان بعقله الهادئ، بل بعقل الطوارئ؛ ذلك العقل الذي يتخذ قراراته تحت ضغط الخوف والوقت المحدود.

أعطيت الأوامر بإسقاط الطائرة. وفي لحظة واحدة غيرت قرارية عسكرية مصير 269 إنساناً. انطلقت الصواريخ نحو الطائرة المدنية. ومع إصابة الهيكل، بدأت الطائرة تفقد قدرتها على السيطرة.

في السماء التي كانت قبل دقائق هادئة ومطمئنة، تحولت الرحلة إلى مأساة تتساقط فيها الأحلام مع الحطام. ثم اختفت الطائرة في مياه بحر اليابان.

>

269 روحاً دفعة واحدة

لم ينبج أحد.

اختفى الأطفال والآباء والأمهات والطلاب والمسافرون في لحظة لم يختاروها ولم يتوقعوها.

ومن بين الضحايا مواطنون من دول متعددة، بينهم أمريكيون وشخصيات عامة وعضو في الكونغرس الأمريكي.

كانت المأساة أكبر من مجرد رقم. فكل ضحية كانت تحمل عالمًا كاملاً من الذكريات والعلاقات والطموحات.

علم الاجتماع يذكرنا دائماً بأن موت الفرد لا يعني نهاية حياة واحدة فقط، بل اهتزاز شبكة كاملة من الروابط الإنسانية. فخلف كل ضحية عائلة تنتظر، وأصدقاء يترقبون، وأحلام لم تكتمل.

ولهذا لم يكن سقوط الطائرة حادثاً جويًا فحسب، بل كارثة إنسانية عابرة للحدود.

>

العالم على حافة الانفجار

ما إن انتشر الخبر حتى انفجرت موجة من الغضب العالمي. اتهمت الولايات المتحدة الاتحاد السوفيتي بارتكاب عمل وحشي ضد المدنيين، بينما حاولت موسكو في البداية نفي معرفتها الكاملة بما جرى، ثم بررت الفعل باعتباره دفاعاً عن السيادة الوطنية. ارتفعت حدة الخطاب السياسي. وزادت مستويات التأهب العسكري. وتبادل الطرفان الاتهامات. في تلك الأيام شعر كثير من الناس أن العالم يقف على حافة مواجهة نووية.

لقد كانت الحرب الباردة أصلاً قائمة على الخوف المتبادل، وجاءت هذه الحادثة لتضيف طبقة جديدة من التوتر فوق توتر قائم بالفعل.

يشبه الأمر شخصين يحمل كل منهما سلاحاً ويقفان في غرفة ضيقة مظلمة، ثم يسمع أحدهما صوتاً غامضاً فيضغط الزناد قبل أن يتأكد مما سمعه.

>

الحقيقة التي ظهرت متأخرة

مرت السنوات. وتغيرت الخريطة السياسية للعالم. ثم جاء انهيار الاتحاد السوفيتي، لتبدأ معه عملية كشف كثير من الوثائق والأسرار التي ظلت مخفية لعقود.

أظهرت التسجيلات والمعلومات اللاحقة أن الطائرة كانت بالفعل طائرة ركاب مدنية، وأنها لم تكن تقوم بمهمة تجسس.

كما كشفت الوثائق حجم الارتباك وسوء التقدير الذي رافق عملية اتخاذ القرار.

كانت الحقيقة مؤلمة؛ لأن الكارثة لم تكن نتيجة مؤامرة معقدة بقدر ما كانت نتيجة تفاعل مأساوي بين الخطأ البشري والخوف السياسي وسوء التواصل. إنها تذكير قاسٍ بأن الحضارة الحديثة، رغم كل ما تمتلكه من تقنيات، لا تزال عرضة لأخطاء الإنسان نفسه.

>

قراءة نفسية واجتماعية للحادثة

تكشف هذه المأساة عن عدة حقائق مهمة.

أولها أن الخوف الجماعي قادر على تشويه الإدراك. فعندما تعيش المؤسسات تحت ضغط التهديد المستمر، فإنها تميل إلى رؤية الأعداء في كل مكان.

وثانيها أن القرارات المصيرية لا تُتخذ دائماً بناءً على الحقائق الكاملة، بل كثيراً ما تُبنى على معلومات ناقصة وتفسيرات متسرعة.

أما الحقيقة الثالثة فهي أن التكنولوجيا وحدها لا تكفي لمنع الكوارث، لأن الإنسان يبقى الحلقة الحاسمة في كل نظام.

ونجد أمثلة مشابهة في الواقع المعاصر؛ إذ تؤدي أحياناً الإشاعات المنتشرة عبر وسائل التواصل الاجتماعي إلى خلق حالات ذعر جماعي، فيتصرف الناس بناءً على مخاوف متخيلة أكثر من اعتمادهم على الوقائع الفعلية.

الفارق فقط أن نتائج تلك الإشاعات تكون اجتماعية أو اقتصادية، بينما كانت نتائج حادثة الطائرة الكورية جيوسياسية وعسكرية وإنسانية في آن واحد.

>

من رحم المأساة وُلد تطور جديد

رغم قسوة الحدث، فقد أدى إلى مراجعات واسعة في أنظمة الملاحة الجوية العالمية.

وكان من أبرز النتائج قرار الولايات المتحدة إتاحة نظام تحديد المواقع العالمي (GPS) للاستخدام المدني بصورة أوسع، بهدف تحسين دقة الملاحة الجوية وتقليل احتمالات وقوع أخطاء مشابهة في المستقبل.

وهكذا تحولت المأساة إلى درس عالمي. فالإنسانية كثيراً ما تتعلم ببطء، لكنها تحاول أن تبني من أنقاض أخطائها وسائل جديدة للحماية.

لقد أصبح تحديد المواقع اليوم جزءاً عادياً من حياة البشر، يستخدمه الطيار والبحار وسائق السيارة وحتى المارة في الشوارع، لكن خلف هذه التقنية الحديثة تختبئ قصص مؤلمة ساهمت في تطويرها.

>

حين يهدد خطأ واحد مصير العالم

لم تكن حادثة الطائرة الكورية الجنوبية عام 1983 مجرد مأساة جوية عابرة، بل كانت درسًا تاريخيًا عميقًا في هشاشة الإنسان أمام الخوف وسوء الفهم.

فطائرة ضلّت طريقها في السماء. ورادارات قرأت المشهد بعين الشك. وقرار عسكري اتخذ تحت ضغط التوتر. ثم عالم كامل حبس أنفاسه خوفًا من اندلاع حرب قد لا تبقى ولا تذر.

إنها قصة تذكرنا بأن الحضارة الإنسانية ليست محمية فقط بالتكنولوجيا أو القوة العسكرية، بل بالحكمة وضبط النفس والقدرة على التحقق من الحقائق قبل اتخاذ القرارات المصيرية.

ففي عالم تتزايد فيه وسائل القوة يومًا بعد يوم، تظل أعظم وسائل النجاة هي العقل الهادئ.

ولعل الدرس الأهم الذي تركته تلك الرحلة المنكوبة هو أن المسافة بين السلام والكارثة قد تكون أحيانًا أصغر مما نتخيل؛ مجرد خطأ ملاحي صغير، أو سوء تقدير عابر، أو قرار متسرع في لحظة خوف.

وعندما تجتمع هذه العناصر معًا، قد يجد العالم نفسه واقفًا مرة أخرى على حافة الهاوية.

تعال معي تتابع الرحلة من أولها :

الطائرة التي ابتلعها السماء حكاية الخوف البارد بين إمبراطوريتين

في عالمنا المعاصر، لم تعد الحروب تبدأ من فوهة مدفع، ولا تنتهي عند حدود البحر أو اليابسة. لقد صار الجو نفسه ميدانًا خفيًا للصراع، سماءً ملوثة بالريبة، تعبرها الطائرات كما تعبر الطيور فوق غابة مليئة بالصيادين.

السماء التي كانت يومًا رمزًا للحرية والانعتاق، تحولت إلى مرآة تعكس قسوة الإمبراطوريات الحديثة، وإلى ساحة واسعة تتشابك فيها العيون الإلكترونية، والرادارات الصامتة، والصواريخ التي لا تخطئ إلا حين تريد السياسة ذلك.

لم يعد العالم يتحدث عن ، المجال الوطني ، كما كان في الأزمنة الغابرة ، بل استبدلت المعاجم السياسية تلك العبارة البسيطة بكلمة أكثر برودة ووحشية : ، حرية الأجواء.

لكن الحرية هنا لم تكن سوى قناع أنيق لرقابة لا تنام.

حدود غير مرئية تمتد في السماء مثل أسلاك شائكة شفافة، تحرسها أقمار صناعية، وتراقبها غرف مظلمة يجلس فيها رجال لا تظهر أسماؤهم في الصحف، ولا يعرف أحد عدد القرارات التي اتخذوها بضغطة إصبع واحدة.

وفي ذلك العصر الملبد بغيوم الخوف، صار الخطأ البشري كارثة دولية، وصار ارتباك جهاز رادار كافيًا لإشعال العالم.

وكانت الطائرة الكورية، بوبنج 747، تحلق ذات يوم داخل هذا المناخ المشحون، كحمامة بيضاء ضلت طريقها فوق غابة من البنادق.

هل كانت مجرد طائرة مدنية أخطأت المسار ؟ أم كانت قطعة صغيرة في لعبة مخابراتية أكبر من قدرة البشر العاديين على الفهم ؟

ذلك السؤال ظل معلقًا في الهواء منذ السادس عشر من سبتمبر عام 1983، كجثة لم يسمح لها التاريخ بالدفن الكامل.

>

في مطار كينيدي بنيويورك، كانت الليلة باردة على نحو غير مألوف . , الريح القادمة من جهة الأطلسي تحمل رائحة مطر بعيد، فيما الأضواء الصفراء الممتدة على المدرجات تبدو مثل سلاسل نار طويلة وسط العتمة.

داخل صالة المغادرة، اختلطت اللغات والوجوه والحقائب والعواطف في مشهد إنساني بسيط، لا يوحي أبداً بأن الموت يقف قريباً، متكناً على جناح طائرة.

حسب قائمة الركاب، لم يتخلف أحد.

رجل الأعمال الكوري العائد إلى أسرته. العجوز اليابانية التي تحمل هدية لحفيدتها. الطالب الأمريكي الذي يسافر لأول مرة إلى آسيا. الأم التي تحاول تهدئة طفلها النعسان. المضيقة الشابة التي تخفي تعبها خلف ابتسامة مدربة.

كلهم دخلوا الطائرة بأحلام صغيرة وعادية، كأنهم يصعدون إلى قطعة عابرة من الزمن لا إلى مصير مغلق.

أما الكابتن ، تشونغ، قائد الرحلة، فكان يجلس داخل قمرة القيادة بهدوء رجل اعتاد السماء حتى صارت جزءاً من جلده. نظر إلى الأجهزة المضيقية أمامه، ثم ألقى نظرة طويلة عبر الزجاج الأمامي. المدرج يمتد مستقيماً كقدر محتوم.

قال مساعده بصوت خافت :

الليلة تبدو ثقيلة يا كابتن.

ابتسم تشونغ دون أن يلتفت:

كل الرحلات الليلية ثقيلة، السماء في الليل تشبه عقل الإنسان، واسعة وملينة بالأسرار.

ضحك المساعد بخفة، لكنه لم يعرف لماذا شعر فجأة بانقباض

داخلي.

كان الكابتن تشونغ رجلاً تجاوز الخمسين بقليل رشيق القامة ، يحمل في ملامحه هدوء البحارة القدماء. ورغم سنوات الطيران الطويلة، لم يتخلص يوماً من شعور غامض بأن السماء لا تمنح الأمان الكامل لأحد

. سأل مساعده عن أحوال الطائرة ، و كيف تم الكشف عن الأجهزة ، و
خصوصا جهاز الارسال .

كان يقول دائماً في داخله :

، الطائرة لا تسقط دفعة واحدة، بل تبدأ بالسقوط منذ اللحظة التي
يظن فيها البشر أنهم يسيطرون على كل شيء .،

>

حين كانت السماء تُخفي القيامة

المدينة التي تلاشت في الأفق

أقلعت الطائرة بهدوء مهيب، كأنها طائر أسطوري ضخم يحزر جناحيه ببطء من أسر الأرض، ويختبر للمرة الأخيرة جاذبية العالم السفلي قبل أن يستسلم لرحابة السماء. ارتجف جسدها المعدني قليلاً فوق المدرج الطويل، ثم اندفعت في عتمة الليل صاعدة نحو طبقات الهواء الباردة، فيما كانت أضواء نيويورك تتراجع خلفها تدريجياً كلوحة من ذهب سائل.

بدأت المدينة في البداية واضحة المعالم؛ شوارع مستقيمة تتقاطع كخيوط الضوء، وأبراج شاهقة تشع من قلب الظلام كمنارات حضارية تتحدى الليل. لكن مع ازدياد الارتفاع أخذت التفاصيل تتلاشى شيئاً فشيئاً. انكشفت المباني، واختفت الجسور، وتراجعت الأحياء والأرصعة، حتى تحولت المدينة بأسرها إلى بقعة ذهبية صغيرة معلقة في السواد، ثم إلى خيط ضوء باهت، ثم إلى ذكرى بعيدة لا تكاد تُرى.

وهكذا، كما يحدث دائماً في التاريخ، تبتعد الأشياء العظيمة بسرعة مذهشة عندما ننظر إليها من مسافة كافية.

داخل الطائرة كان المشهد مختلفاً تماماً. لم يكن أحد من الركاب يفكر في مصير العالم أو في خرائط الصراع الدولي. كانت الحياة البشرية تمارس عاداتها القديمة في تجاهل الكوارث المحتملة.

رجل أعمال فتح حقيبته الجلدية وراح يراجع أوراقه للمرة العاشرة. امرأة شابة أسندت رأسها إلى النافذة وأغمضت عينيها استعداداً للنوم. طفل صغير كان يقاوم النعاس بعناد قبل أن تستسلم جفونه أخيراً. أما المضيفات فكن يتحركن بخفة بين المقاعد، يوزعن القهوة والبطانيات والابتسامات المهنية التي لا تتغير مهما تغيرت أحوال العالم.

كانت أصوات خافتة تتردد في المقصورة: همسات متقطعة، احتكاك صفحات المجلات، رنين الملاعق الصغيرة في أكواب القهوة، وصفير أجهزة التكيف الذي يشبه أنفاساً طويلة متواصلة.

كل شيء كان يوحى بالاعتقاد. كل شيء كان يوحى بأن العالم بخير. غير أن التاريخ كثيرًا ما يبتسم بهذه الطريقة الماكرة قبل أن يكشف وجهه الآخر.

فبينما كانت الطائرة تشق طريقها عبر المحيط تحت نجوم صامته، كانت هناك في مكان بعيد حرب أخرى تدور دون إطلاق رصاصة واحدة. حرب لا تُسمع أصواتها داخل الطائرات ولا في المقاهي ولا في البيوت الدافئة.

كانت حربًا من نوع مختلف. حربًا تسكن الشاشات والأرقام والإشارات الإلكترونية، حربًا بين الخوف والخوف.

زمن القلق النووي

كان العالم آنذاك يعيش إحدى أكثر مراحل توترًا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. فقد انقسم الكوكب إلى معسكرين هائلين؛ أحدهما يقوده الاتحاد السوفييتي، والآخر تقوده الولايات المتحدة الأمريكية.

لم تكن الحدود الحقيقية بينهما مرسومة على الخرائط فحسب، بل كانت محفورة أيضًا في العقول والقلوب والعقائد السياسية.

كل طرف كان ينظر إلى الآخر بوصفه تهديدًا وجوديًا. كل صاروخ جديد كان يولد صاروخًا مضادًا.

وكل تجربة عسكرية كانت تفتح بابًا جديدًا للشك. لقد دخل العالم عصرًا غريبًا أصبح فيه السلام قائمًا على الخوف، والاستقرار قائمًا على احتمال الفناء.

ولعل المفارقة الأكثر قسوة أن البشرية بلغت أعلى درجات تقدمها العلمي في الوقت نفسه الذي امتلكت فيه القدرة على تدمير نفسها بالكامل.

كان العلماء يبنون المستقبل. وكان الجنرالات يستعدون لنهايته.

في تلك السنوات الثقيلة، لم تكن كلمة "حرب" تعني معركة محدودة أو نزاعًا إقليميًا فحسب، بل كانت تعني احتمال اختفاء مدن كاملة خلال دقائق معدودة.

كان الناس يذهبون إلى أعمالهم ويحتفلون بأعياد الميلاد ويتزوجون وينجبون الأطفال، بينما فوق رؤوسهم آلاف الرؤوس النووية الجاهزة للانطلاق.

عاش العالم بأسره تحت مظلة من القلق الصامت. قلق لا يُرى، لكنه حاضر في كل مكان.

في قلب القاعدة العسكرية

على بعد آلاف الكيلومترات من تلك الطائرة المدنية، وفي منطقة معزولة داخل إحدى القواعد العسكرية السوفييتية، كان الليل أكثر برودة وأكثر كثافة.

الممرات الخرسانية الطويلة بدت كأنها أنفاق محفورة داخل جبل من الصمت. الأضواء البيضاء الباهتة كانت تنعكس على الجدران المعدنية فتمنح المكان هيئة منشأة خارجية من رواية مستقبلية كئيبة.

في إحدى غرف المراقبة جلس ضابط الرادار الشاب أليكسي أمام شاشة خضراء متوهجة.

كان في أواخر العشرينيات من عمره، لكن التعب أضاف إلى ملامحه سنوات أخرى. عيناه الحمراء تشهدان على ليالٍ طويلة من السهر المتواصل. ووجهه الشاحب يعكس إرهاقاً تراكم ببطء تحت وطأة المسؤولية والخوف.

منذ أسابيع لم يعرف أليكسي معنى الراحة الحقيقية. كان ينام ساعات قليلة متقطعة ثم يعود إلى موقعه. يشرب الشاي والقهوة بلا متعة. ويتابع نشرات الاستخبارات والتقارير العسكرية وكأنه يراقب عدداً تنازلياً لا يعرف أحد متى ينتهي.

أمام عينيه كانت الشاشة الخضراء تعرض نقاطاً وإشارات متحركة. بالنسبة لأي شخص عادي لم تكن تلك الإشارات تحمل معنى يُذكر. أما بالنسبة له فكانت تمثل مدناً وجيوشاً وطائرات وصواريخ وربما مصير البشرية كلها.

رفع كوب الشاي الموضوع بجواره. كان الشاي قد برد منذ وقت طويل. نظر إليه لحظة ثم أعاده إلى مكانه دون أن يتذوقه. لم يكن الجفاف في حلقه ناتجاً عن العطش. كان ناتجاً عن القلق.

فالخوف الحقيقي لا يمنع الإنسان من النوم فقط، بل يمنعه أحياناً من البلع والتنفس والتفكير بوضوح.

حوار تحت سقف الخوف

فُتح باب الغرفة فجأة.

دخل القائد العسكري بخطوات حادة ومنتظمة.

كان رجلاً اعتاد الانضباط حتى في طريقة سيره. بدت ملامحه جامدة كأنها منحوتة من الحجر، لكن خلف تلك الصلابة كان يسكن قلق لا يقل عن قلق ضباطه.

توقف بالقرب من أليكسي وسأله بصوت منخفض :

هل هناك أي تحرك غير معتاد الليلة ؟

لم يرفع أليكسي عينيه عن الشاشة. ظل يراقب النقاط المضيئة قبل أن يجيب :

لا شيء حتى الآن... السماء هادئة.

ساد الصمت للحظات. كانت الإجابة مطمئنة في ظاهرها.

لكن القائد لم يبذُ مطمئناً. بل على العكس، ازدادت تجاعيد القلق حول عينيه.

في تلك المرحلة من الحرب الباردة كانت كلمة "هادئة" كلمة مخادعة. فالهدوء لم يعد يعني الأمان. بل ربما كان يعني أن العاصفة لم تظهر بعد.

نظر القائد إلى الشاشة ثم إلى الضابط الشاب.

وقال بعد تردد :

أحياناً أخشى من الليالي الهادئة أكثر من الليالي الصاخبة.

ابتسم أليكسي ابتسامة صغيرة باهتة.

كان يفهم المقصود جيداً.

ففي عالم الردع النووي لا تأتي الكوارث وهي تصرخ. بل تأتي غالباً وهي تهمس.

ما قبل العاصفة

خارج المبنى كانت الرياح الباردة تعبر السهول المظلمة بلا اكتراث. أما في السماء فكانت النجوم تلمع بهدوء أبدي، وكأن الكون كله يجهل ما يجري على هذا الكوكب الصغير المضطرب.

في تلك اللحظة نفسها كانت الطائرة المدنية تتابع رحلتها فوق المحيط.

كان الركاب نائمين.

وكانت الأضواء الخافتة تغمر المقصورة بسكينة وديعة. وكانت الأرض تدور في مسارها المعتاد حول الشمس. كل شيء يبدو طبيعيًا. كل شيء يبدو مستقرًا.

غير أن التاريخ يعلمنا أن أخطر اللحظات ليست دائمًا تلك التي تمتلئ بالضجيج. بل تلك التي يسبقها صمت عميق. صمت يشبه السكون الذي يسبق الزلزال. أو الظلمة التي تسبق البرق. أو ذلك النفس الطويل الذي يأخذه القدر قبل أن يقلب صفحة كاملة من حياة الأمم.

لم يكن أليكسي يعلم أن الساعات القادمة ستحملة إلى اختبار لم ينتهياً له أحد.

ولم يكن ركاب الطائرة يدركون أن مصائرهم قد ترتبط بقرار يتخذ في غرفة مراقبة بعيدة.

ولم يكن العالم كله يعلم أنه يقف بالفعل على حافة هاوية لم يفصل بينه وبينها سوى لحظات من الشك أو اليقين.

وهكذا استمر الليل في امتداده البطيء. واستمرت الطائرة في التحليق. واستمرت الشاشة الخضراء في إرسال ومضاتها الصامتة.

أما التاريخ، فكان يستعد لكتابة واحدة من أكثر صفحاته توترًا وإثارة، الصفحة التي كادت فيها إشارة واحدة خاطئة أن تحول الأرض من كوكب للحياة إلى رماد معلق في الفضاء.

>

مرت الساعات. الطائرة الكورية تواصل رحلتها فوق المحيط، ثم نحو المسارات القطبية الباردة.

في قمرة القيادة، بدأ الكابتن تشونغ يشعر بشيء غامض. ليس خوفًا واضحًا، بل ذلك الإحساس الثقيل الذي يسبق الكارثة أحيانًا.

تأمل النجوم البعيدة، وهمس في داخله :

،كم يبدو الإنسان صغيرًا هنا، مجرد نبضة قلب داخل آلة تعلق فوق الفراغ.

ثم تذكر زوجته في سيول. تذكر ابنه الذي وعده بشراء دراجة جديدة عند عودته. ابتسم بحزن خفيف.

كان الطيارون يعرفون أكثر من غيرهم أن الإنسان يعيش دائماً على حافة المجهول.

>

وفجأة، ظهر الهدف على شاشة الرادار السوفييتي. اقترب أليكسي من الشاشة أكثر :

هناك جسم يدخل المجال الجوي.

صمتت الغرفة كلها. اقترب القائد بسرعة.

هل هو عسكري ؟

تردد أليكسي.

النقطة المضيفة كانت تتحرك بثبات، لكن بياناتها غير واضحة.

في زمن الحرب الباردة، لم تكن الشكوك تحتاج إلى أدلة كاملة. كان الخوف نفسه دليلاً كافياً.

قال القائد ببرود :

قد تكون طائرة تجسس أمريكية.

شعر أليكسي بجفاف في حلقه.

منذ شهور، والقيادة السوفييتية تعيش هاجس الاختراقات الأمريكية. وكان الجميع يعرف أن الخطأ قد يعني نهاية العالم. لكن شيئاً داخل أليكسي لم يكن مرتاحاً. اقترب من الشاشة أكثر، وهمس:

ربما تكون طائرة مدنية،

نظر إليه القائد بعينين قاسيتين :

في هذه السماء، لا وجود للكلمة، ربما،.

>

في تلك اللحظة نفسها، كانت المضيفة الكورية، يون هي، تمر بين الركاب بعربة المشروبات. طفل صغير كان يضغط أنفه على النافذة، محاولاً رؤية شيء وسط الظلام.

سألها ببراعة :

هل نحن قرييون من النجوم ؟

ابتسمت له و قالت :

النجوم دائماً قريبة يا صغيري، لكن البشر هم البعيدون عنها.

ضحكت الأم، بينما عاد الطفل يتأمل السماء.

ولم يكن أحد منهم يعرف أن صاروخاً بدأ بالفعل يستعد في مكان

ما.

>

داخل القاعدة العسكرية، دوى صوت الإنذار. جاء الأمر النهائي

: اعتراض الهدف.

وقف أليكسي متجمداً.

كان يشعر بأن شيئاً رهيباً يحدث، لكنه لم يكن يملك الشجاعة

الكافية لإيقافه.

الحروب الباردة لا تمنح الجنود حق الشك. هناك دائماً أوامر

أكبر من الضمير.

جلس وهو يسمع أصوات الطيارين العسكريين عبر أجهزة

الاتصال. ثم ظهرت الكلمات التي ستطارده بقية حياته :

الهدف أمامنا.

هل توجد إشارات مدنية ؟

صمت قصير. ثم جاء الرد المشؤوم :

لا يمكن التأكد.

شعر أليكسي بقلبه يهبط داخله.

في الخارج، كانت السماء القطبية صامتة بشكل مخيف. النجوم

باردة. والعالم نائم. والبشر يقتربون من جريمة لن يستطيع التاريخ غسلها

بالكامل.

>

أما الكابتن تشونغ، فكان ينظر إلى الأجهزة بحيرة خفيفة.

شيء ما غير طبيعي. التقط سماعه الاتصال. لكن الكلمات
تداخلت وسط التشويش. ثم لمح ضوءًا بعيدًا يقترب بسرعة. في البداية
ظنه انعكاسًا عابرًا. لكن الضوء كان يزداد. ويقترب. ويتحول إلى قدر
مشتعل.

في تلك الثواني القصيرة، شعر الزمن كله وكأنه يتباطأ.
تذكر طفولته قرب البحر. تذكر أول مرة رأى فيها طائرة.
تذكر خوفه القديم من الموت المفاجئ.
ثم خطر في ذهنه سؤال غريب :
، هل يدرك البشر أنهم هشون إلى هذا الحد ؟ ،

>

الصاروخ اخترق السماء مثل سهم من نار. وفي لحظة واحدة،
تمزق الليل. اهتزت الطائرة بعنف رهيب. صرخ الركاب. تساقطت
الحقائب والأكواب والأجساد.

الطفل الصغير الذي كان يبحث عن النجوم، اختفى صوته فجأة
وسط الفوضى. أما يون هي، المضيئة الشابة، فأمسكت بالمقاعد محاولة
التوازن، فيما الدماء والظلام والذعر امتزجت في مشهد جهنمي.

داخل قمرة القيادة، كان الكابتن تشونغ يحاول السيطرة على
الطائرة المحتضرة. الإنذارات تصرخ حوله. الأجهزة تومض
بجنون. والسماء نفسها بدت وكأنها تتشقق.

صرخ مساعده:

لقد أصبنا !

لكن تشونغ ظل ممسكًا بالمقود بقوة.

لم يكن يفكر في النجاة. بل كان يفكر فقط في أولئك البشر خلفه.

قال بصوت مبجوح :

حاول أن نبقىها مستقرة، لأطول وقت ممكن.

وفي داخله، شعر بحزن إنساني عميق. ليس لأنه سيموت، بل
لأن البشر تعلموا كيف يحولون السماء إلى مقبرة.

>

أما أليكسي، فقد ظل جالسًا أمام شاشة الرادار، عاجزًا عن الحركة. النقطة اختفت. اختفت فقط. بهذه البساطة.

اقترب القائد منه وقال ببرود قاتل :

المهمة انتهت.

لكن أليكسي لم يسمع شيئًا.

كان يشعر أن أرواحًا كثيرة مرت للتو عبر صدره.

همس لنفسه :

ماذا لو كانت طائرة مدنية فعلاً ؟

لم يجبه أحد.

في الحروب الكبرى، لا أحد يجيب عن الأسئلة الأخلاقية.

>

سقطت الطائرة في ظلام البحر. واختفت معها مئات القصص الصغيرة، والأحلام المؤجلة، والرسائل التي لم تصل، والوعود التي لم تكتمل.

لكن الحقيقة نفسها لم تسقط معها. ظلت معلقة بين موسكو وواشنطن، بين أجهزة المخابرات، وبين الملفات السرية التي أغلقت عليها الأدراج الحديدية.

هل كان الأمر خطأ تقنيًا ؟ أم خوفًا هستيريًا ؟ أم لعبة استخباراتية قدرة دفعت ثمنها أرواح الأبرياء ؟

حتى اليوم، لا يعرف العالم الحقيقة كاملة. ربما لأن الحقيقة في زمن الإمبراطوريات لا تُدفن، بل تُخفى بعناية.

>

ومنذ تلك الليلة، صار كثير من الطيارين ينظرون إلى السماء بطريقة مختلفة. لم تعد السماء فضاءً نقيًا بل مساحة تتقاطع فيها السياسة والخوف والبارود.

أما البشر العاديون، فقد ظلوا يسافرون رغم كل شيء، يحملون حقائبهم وأحلامهم الصغيرة، غير مدركين أن مصائرهم قد تتقرر أحيانًا داخل غرفة مظلمة يجلس فيها رجل متعب أمام شاشة خضراء.

وربما كانت تلك هي مأساة الإنسان الحديثة.

أنه يعيش حياته اليومية البسيطة، بينما العالم الحقيقي يُدار في الخفاء، بأصابع باردة لا ترى الوجوه، ولا تسمع صرخات الأطفال، ولا تشعر بثقل الموت حين يسقط من السماء.

أما الكابتن تشونغ، فقد بقي اسمه عالقًا في ذاكرة الليل، كأخر رجل حاول أن يقود طائرة مليئة بالبشر وسط جنون الإمبراطوريات.

وفي بعض الليالي الباردة، حين تعبر الطائرات فوق المحيطات المعتمة، يتخيل بعض الطيارين أن السماء لا تزال تحفظ صدى تلك الرحلة الأخيرة،

رحلة الطائرة التي ابتلعها السماء

على أجنحة الغيم الرحلة التي لم تكن عادية

في تلك الليلة الشتوية الثقيلة، حين كانت السماء فوق بحر الشرق الأقصى تبدو كصفحة حديدية مطفأة، كانت الطائرة العملاقة تشق العتمة بثبات يشبه ثبات سفينة عتيقة تعرف طريقها وسط الضباب. أضواء المقصورة الخافتة انسكبت على الوجوه مثل حليب دافئ، والركاب توزعوا بين صمت التأمل، ونعاس السفر، وأحاديث خافتة تتكسر عند أطراف المقاعد.

في قمرة القيادة، كان الكابتن شون يجلس بثقة البحار القديم. رجل تجاوز الخمسين بقليل، عركته السنين، وأكلت الريح أطراف صوته، حتى صار كلامه يحمل خشونة هادئة تشبه خشب السفن العائد من الأعاصير. عيناه الضيقتان كانتا معلقتين بلوحة العدادات، لكن ذهنه كان أبعد من الأرقام والإشارات. كان يشعر، على نحو غامض، أن لهذه الرحلة طعمًا مختلفًا.

التفت إلى مساعده، بن تان، الذي كان يراجع سجل الركاب بعناية، وقال بنبرة هادئة امتزج فيها الفضول بشيء من الدعابة:

أرى أن معنا شخصية صناعية كبيرة يا عزيزي بن تان.

رفع بن تان رأسه، وابتسم ابتسامة صغيرة توحى بالاحترام أكثر مما توحى بالمرح، ثم قال:

أجل يا كابتن شون، معنا السيد لاري ماكدونالد، مدير شركة بوش العالمية. يبدو أنه متجه إلى شركة، سول للصناعات الثقيلة، لعقد اتفاق خاص مع حكومتنا.

أطلق شون صفيراً خافتاً، ثم قال:

أهلاً به إذن، رجال المال يشبهون الطيور المهاجرة، لا يستقرون في أرض واحدة أبداً.

ضحك بن تان قليلاً، ثم تابع قراءة القائمة :

معنا أيضاً خمسة وسبعون أمريكياً، ومعظمهم من رجال الأعمال، وهناك رجل من السلك القنصلي الأمريكي، وخمسة وسبعون كورياً من مواطنينا، وخمسة وثلاثون صينياً، وثمانية وعشرون يابانياً، والباقون من جنسيات متعددة. ثم أغلق الملف وأضاف بثقة :

كل شيء على ما يرام يا كابتن شون.

ظل شون صامتاً لحظة، وعيناه تراقبان الأفق الأسود خلف الزجاج الأمامي . ثم قال ببطء :

هل انتهى أمر جهاز الراديو؟

أجاب بن تان بسرعة :

أجل، كان هناك عطل بسيط في أحد الأجهزة، لكن مهندسي الطائرة أصلحوه. وقد أشرفتُ بنفسي على عملية الإصلاح، وأجريتُ التجارب المعتادة.

مال شون برأسه قليلاً، ثم ابتسم ابتسامة متعبة وقال :

هكذا يجب أن يكون الأمر.

ثم أضاف بنبرة مازحة :

لكنك تعرفني يا بن تان، لا أطمئن حتى ألمس الأشياء بيدي.

ابتسم المساعد وقال :

هكذا أنت دائماً يا كابتن شون، تشرف بنفسك على كل شيء في طائرتك، حتى طعام الركاب.

ضحك شون هذه المرة بصوتٍ واضح ، وارتسمت على وجهه تجاعيد دافئة تشبه خطوط الحقول القديمة.

يا عزيزي بن تان، إنني أريد لكل راكبٍ على طائرتنا أن يشعر أنه في داره.

قالها ببساطة، لكنه حين صمت بعد ذلك، شعر بشيءٍ ثقيل يتحرك في أعماقه. كان يؤمن حقاً بهذه العبارة. فالطائرة بالنسبة إليه لم تكن مجرد آلة معدنية تعبر السماء، بل كانت مدينةً صغيرة معلقة بين الأرض والقدرة.

وهو، في نظر نفسه، لم يكن مجرد قائد، بل حارس أرواح.

>

في المقصورة الأمامية، كان لاري ماكدونالد يجلس قرب النافذة، واضعاً ساقاً فوق أخرى، بينما يحدق في السحاب الغارق في الظلام.

رجل أمريكي طويل القامة، أشيب الشعر، تفوح منه رائحة السلطة والمال. لكنه، رغم هيئته، بدا تلك الليلة قلقاً على نحو غريب.

أخرج من جيبه صورة صغيرة لامرأة في الأربعينيات، تتوسطها طفلة تبسم بعينين واسعتين. ظل يتأمل الصورة طويلاً. ثم همس لنفسه:

سأعود هذه المرة، أعدك بذلك يا ماري.

لكن الكلمات خرجت منه واهنة، كأن قلبه لا يصدقها تماماً.

كان النجاح قد التهم حياته قطعةً قطعة. المصانع، العقود، المؤتمرات، الفنادق، المطارات، كلها تحولت إلى طاحونة هائلة سحقته عمره بهدوء.

فجأة شعر أنه متعب. متعب بصورة لم يعترف بها من قبل.

نظر عبر النافذة مرة أخرى، فرأى القمر معلقاً فوق السحب مثل جرحٍ مضيء. وتساءل في سره:

، ما الذي يربحه الإنسان حين يخسر نفسه؟ ،

>

في الخلف، كانت امرأة كورية شابة تهدد طفلها النائم ، بينما يراقبها زوجها بصمتٍ حنون.

وعلى بعد مقعدين، كان رجل أعمال ياباني يقرأ تقريراً اقتصادياً بعينين متوترتين.

أما الدبلوماسي الأمريكي فكان يكتب ملاحظات سريعة في دفتر جلدي أسود.

داخل الطائرة، بدت البشرية كلها مختصرةً في ذلك الأنبوب الطائر.

لغات متعددة. أحلام متعددة. مخاوف متعددة.

لكن السماء فوق الجميع كانت واحدة.

>

عاد شون يتفقد المؤشرات مرة أخرى. كل شيء يبدو مستقراً.
الرياح معتدلة. الوقود كافٍ. المسار آمن.

ومع ذلك، كان قلبه منقبضاً. لم يعرف السبب.

أحياناً، يشعر الطيارون بأشياء لا تستطيع الأجهزة قياسها.
حدسٌ غامض يشبه همس البحر للصيادين القدماء.

تذكر فجأة أول رحلة قادها في شبابه.

كان يومها متوتراً إلى حد الارتجاف، حتى إن يديه ظللتا ترتعشان
بعد الهبوط بساعات.

أما الآن، وبعد آلاف الساعات في الجو، فقد صار الخوف مختلفاً.
لم يعد يخاف على نفسه. بل صار يخاف على الآخرين. وهذا النوع من
الخوف أشد قسوة.

تنهد بصمت، ثم قال :

كم بقي على الوصول ؟

أجاب بن تان:

ثلاث ساعات تقريباً.

هز شون رأسه، ثم نهض من مقعده.

سأمر على المقصورة.

>

حين خرج من قمرة القيادة، استقبلته رائحة القهوة والطعام
الساخن. ابتسمت له إحدى المضيفات باحترام، فقال لها :

هل كل شيء بخير ؟

نعم يا كابتن.

ظل يسير ببطء بين المقاعد.

بعض الركاب كانوا نائمين، وبعضهم غارق في القراءة،
وآخرون يحرقون في الفراغ بأعينٍ متعبة.

وكان شون يراقبهم بعين الأب أكثر من عين القائد. توقف قرب
الطفل الكوري النائم، فخفض صوته وسأل الأم :

هل يحتاج إلى شيء ؟

ابتسمت المرأة بخجل وقالت :

لا، شكراً لك.

ثم أكملت بصوتٍ خافت:

إنه يحب الطائرات كثيراً.

نظر شون إلى الطفل طويلاً، ثم قال مبتسماً:

ربما يصبح طياراً يوماً ما.

لكن العبارة أصابته بوخزةٍ داخلية مفاجئة. لأنه يعرف جيداً كم
تسرق السماء من أعمار الرجال.

>

عاد إلى قمرة القيادة، وجلس بصمت.

قال بن تان وهو يراقبه:

تبدو شارذ الذهن الليلة يا كابتن.

أطرق شون قليلاً، ثم قال :

هل تؤمن يا بن تان أن الإنسان يستطيع أحياناً أن يشعر بالخطر
قبل أن يراه ؟

تردد بن تان قبل أن يجيب :

ربما، لكن أجهزة الطائرة لا تشير إلى شيء غير طبيعي.

ابتسم شون ابتسامة باهتة.

نعم، الأجهزة لا تخطئ غالباً.

ثم أضاف في سره :

، لكن القلوب أيضاً لا تكذب دائماً ،

ساد الصمت.

ولم يعد يسمع سوى أزيز المحركات، ذلك الصوت العميق الذي يشبه تنفس مخلوق معدني عملاق يشق السماء بلا توقف.

>

في تلك اللحظة، لمع ضوء صغير على لوحة القيادة. تغير وجه بن تان فوراً. اقترب بسرعة من الأجهزة، وضافت عيناه.

غريب،

رفع شون رأسه فوراً:

ماذا هناك؟

إشارة متقطعة من نظام الاتصال الاحتياطي.

اعتدل شون في جلسته، وعادت الصرامة القديمة إلى ملامحه.

أعد الفحص.

بدأ بن تان يتحرك بسرعة بين الأزرار والمفاتيح.

ثوانٍ قليلة مرت، لكنها بدت طويلة كشتاءٍ كامل.

ثم قال المساعد:

ربما مجرد تشويش مؤقت.

لكن شون لم يجب.

كان يحدق أمامه بعينين ثابتتين. شعر أن الليل خارج الزجاج صار أكثر كثافة. كأن السماء نفسها تحبس أنفاسها.

>

وفي مكانٍ ما داخل أعماقه، تحرك خوفٌ قديم كان نائماً منذ سنوات. الخوف الذي لا يولد من الخطر وحده، بل من الإحساس بأن القدر بدأ يقترب.

تذكر زوجته الراحلة. تذكر ابنه الذي لم يره منذ شهور بسبب الرحلات الطويلة. تذكر الليالي التي عاد فيها إلى بيته غريباً، كأنه ضيفٌ مؤقت في حياة أسرته.

وفجأة سأل نفسه :

، هل يستحق الطيران كل هذا الفقد؟،

لكنه لم يجد جواباً.

لأن السماء كانت قد أصبحت جزءاً منه. ولأن بعض الرجال،
مهما تعبوا، لا يستطيعون النزول من أحلامهم.

قال بن تان محاولاً كسر الصمت :

سنصل بسلام يا كابتن.

نظر إليه شون طويلاً، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة متعبة.

أعرف يا صديقي، أعرف.

لكن صوته هذه المرة لم يكن واثقاً تماماً.

وفي الخارج، كانت الطائرة تواصل رحلتها فوق بحرٍ لا نهاية له،
بينما القمر البعيد يرافقها مثل شاهدٍ صامت على مصائر البشر، أولئك
الذين يضحكون، ويحلمون، ويخططون للغد، دون أن يعرفوا ماذا تخبئ
لهم السماء في قلب الليل.

ظلال فوق الجليد

الحكاية الخفية لرحلة الكابتن شون يونج الأخيرة

في مساءً بارد من أمسيات الربيع المتأخرة، حين كانت مدينة سيول تلمع تحت الضباب كقطعة فضةٍ غارقة في الحلم، كان مطار كيمبو الدولي يتهبأ كخلفية نحلٍ عملاقة لا تنام.

الأضواء الممتدة على المدارج بدت كأنها أنهار نارٍ مستقيمة تشقّ العتمة، والرياح القادمة من البحر كانت تحمل رائحة الوقود والمطر وأصوات المذيعين المختنقة خلف الزجاج.

في الطابق العلوي من مبنى شركة الطيران الكورية، كانت صفحة الكابتن شون يونج مستقرة داخل ملفٍ أزرق أنيق، لا تشوبه ملاحظة واحدة.

الاسم: شون يونج.

الجنسية: كوري.

العمر: خمسة وأربعون عاماً.

الحالة الاجتماعية: متزوج، وله طفلان.

تاريخ الالتحاق بالخدمة: مايو 1972.

عدد ساعات الطيران حتى أول مايو 1983 على طائرات البوينج 747 : ستة آلاف وستمئة وتسع عشرة ساعة.

الصفات المميزة : الإخلاص في العمل ، والإشراف الشخصي الدائم على جميع أمور الرحلة.

كانت تلك الكلمات الإدارية الباردة تبدو، لمن يقرأها، كأنها تعريفٌ كامل لرجلٍ ناجح. لكن الملفات الرسمية لا تخبر أحداً عن التعب الكامن خلف العينين ، ولا عن الخوف الصامت الذي يتسلل إلى قلب الطيار كلما ارتفع فوق السحاب وترك الأرض وراءه.

كان شون يونج يقف تلك الليلة أمام النافذة الزجاجية الواسعة لغرفة الطيارين، يراقب المطر وهو ينساب على الأضواء البعيدة. وجهه الهادئ يوحى بالثقة، لكن في داخله كانت دوامة خفية تدور بلا توقف.

لقد أمضى نصف عمره في السماء. وحين يطير الإنسان طويلاً، يبدأ شيءٌ ما داخله بالتغير. تغدو المدن مجرد نقاط مضيئة، والناس وجوهاً عابرة، أما الزمن نفسه فيتحول إلى ساعات إقلاع وهبوط.

كان يشعر أحياناً أن حياته الحقيقية ليست في بيته، ولا بين أطفاله، بل في قمرة القيادة؛ في ذلك المكان الضيق الممتلئ بالأزرار والأضواء والخرائط والإشارات الإلكترونية.

هناك فقط كان يشعر أنه يسيطر على شيءٍ ما في هذا العالم المضطرب.

دخل مساعده بن تان حاملاً ملف الرحلة، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة وقال :

الجو فوق المحيط هادئ الليلة يا كابتن.

أوما شون دون أن يلتفت. ثم قال بصوت منخفض :

الهدوء في السماء خادع دائماً.

نظر إليه بن تان لحظةً بصمت. كان يعرف قائده جيداً. يعرف أنه من أولئك الرجال الذين يخفون قلقهم تحت طبقة كثيفة من الانضباط.

جلسا معاً لمراجعة تفاصيل الرحلة.

طائرة بوينج 747 ضخمة، محملة بالمسافرين والبضائع والأحلام والوجوه الغربية، تستعد لعبور نصف الكرة الأرضية فوق محيطاتٍ جليدية لا ترحم.

وفي تمام الساعة الرابعة أقلعت الطائرة.

ارتج المدرج تحت قوة المحركات الهائلة، ثم اندفعت الطائرة كوحشٍ معدني يشق الليل.

تراجعت أضواء سيول سريعاً، وبدأت المدينة تبدو من الأعلى مثل كوكبة نجومٍ سقطت على الأرض.

داخل قمرة القيادة، كان الضوء الأزرق الخافت يرسم ظللاً متعباً على وجه شون يونج.

قال بن تان وهو يراجع جدول الرحلات :

حين نصل إلى مطار أنكوراج يا كابتن شون، أرجو أن تذكرني بأن أترك بطاقة تهنئة لزميلنا وان هين بمناسبة عيد ميلاده.

ابتسم شون للمرة الأولى تلك الليلة.

ولماذا تتركها له في مطار أنكوراج ؟

أجاب بن تان وهو يضبط سماعة الرأس :

لأنه يقود الطائرة الكورية القادمة من لوس أنجلوس في الرحلة رقم كي 015، ومن المتوقع أن يصل بعدنا إلى أنكوراج بعشرين دقيقة.

ضحك شون بخفة.

الطياريون لا يتذكرون أعياد الميلاد إلا في المطارات البعيدة.

ثم عاد الصمت. ذلك الصمت الطويل الذي لا يعرفه إلا رجال السماء.

خارج الزجاج الأمامي، كان الليل يمتد بلا نهاية. المحيط تحتهم كتلة سوداء هائلة، والغيوم تتحرك ببطء كجبالٍ من الدخان.

أخذ شون نفساً عميقاً. وفجأة، ومن دون مقدمات، تذكر ابنه الأصغر.

تذكر كيف كان الطفل يركض نحوه كلما عاد من رحلة طويلة، وكيف كان يسأله دائماً :

أبي، هل ترى الله حين تطير فوق الغيوم ؟

في كل مرة كان يعجز عن الإجابة. لأن الطيران علّمه شيئاً غريباً : كلما ارتفع الإنسان أكثر، شعر أكثر بضآلته.

أدار شون عينيه نحو العدادات. كل شيء يعمل بدقة مثالية. السرعة، الوقود، الارتفاع، الاتجاه. ومع ذلك، كان قلبه مثقلاً بإحساسٍ مبهم لا تفسير له. ذلك النوع من القلق الذي يشبه ظلاً بارداً يمرّ فوق الروح.

قال بن تان فجأة :

هل تؤمن بالحدس يا كابتن ؟

رفع شون حاجبه.

لماذا تسأل ؟

تردد بن تان قليلاً قبل أن يجيب :

لا أعرف، فقط أشعر أن هذه الرحلة مختلفة.

ساد الصمت مجدداً.

ثم قال شون بصوتٍ هادئ:

كل رحلة تختلف عن الأخرى، السماء لا تكرر نفسها أبداً.

أطرق بن تان رأسه، بينما كانت الطائرة تشق طريقها شمالاً فوق المياه المتجمدة.

في الخلف، كان المسافرون غارقين في عوالمهم الصغيرة.

امرأة يابانية تقرأ رواية رومانسية قرب النافذة. رجل أعمال أمريكي نائم وفمه نصف مفتوح. طفل يحدق في الظلام خارج الزجاج محاولاً رؤية النجوم.

أما المضيفات، فكنّ يتحركن بخفة داخل الممرات، بابتساماتٍ مدروسة تخفي إرهاق السفر الطويل.

لكن أحداً منهم لم يكن يعلم ما يدور داخل عقل الكابتن شون يونج.

كان الرجل يعيش صراعاً خفياً منذ شهور.

الإدارة تريد مزيداً من الرحلات.

زوجته تشتكي غيابه الدائم. ابنته الكبرى بدأت تكبر وهو بالكاد يعرف ملامح حياتها.

بل إنه صار يشعر أحياناً أن الطائرة سرقت من نفسه.

ومع ذلك، لم يكن يستطيع التوقف.

فالسماء تتحول عند بعض الرجال إلى إيمان.

اقترب بن تان من النافذة و قال :

انظر، الشفق القطبي.

رفع شون عينيه.

وفي الأفق البعيد كانت ستائر الضوء الأخضر تتراقص فوق
الجليد كأن السماء نفسها تحترق بصمت.

همس شون :

جميل، ومخيف.

لماذا مخيف ؟

لأن الجمال الكامل دائماً يحمل شيئاً من الكارثة.

نظر إليه بن تان طويلاً دون تعليق. كان يشعر أن قائده لا يتحدث
عن السماء فقط.

مرت الساعات بطيئة.

وفي منتصف الليل تقريباً، بدأت أجهزة الاتصال تلتقط إشارات
متقطعة بسبب اضطرابات جوية في المناطق الشمالية.

تغير وجه شون قليلاً. الطيارون يكرهون التشويش. إنه يذكرهم
دائماً بأن الإنسان، مهما بلغ من العلم، ما يزال هشاً أمام الطبيعة.

أعاد ضبط الترددات بنفسه، كما اعتاد دائماً. كان مهووساً
بالتفاصيل ، حتى إن بعض زملائه كانوا يرونه صارماً أكثر من اللازم.
لكنه كان يؤمن أن الخطأ الصغير في السماء قد يتحول إلى مأساة كاملة.

قال بن تان محاولاً كسر التوتر :

زوجتي تريدني أن أترك الطيران.

ابتسم شون بمرارة.

كل زوجات الطيارين يكرهن السماء.

وزوجتك ؟

تردد شون قليلاً. ثم قال بصوتٍ خافت :

زوجتي لا تكره السماء، إنها تكره أنني أحبها أكثر منها.

ظل بن تان صامتاً.

أما شون، فشعر فجأة بوخزة ألمٍ داخلي.

كم مرة عاد إلى منزله متعباً لا يقوى حتى على الحديث ؟ كم عيد ميلاد فاتته ؟ كم مرة وعد أطفاله بالسفر معهم ثم اختفى في رحلة جديدة ؟
كان النجاح المهني يلمع في ملفه الوظيفي، لكن حياته الشخصية كانت تتآكل ببطء. تلك هي مأساة الرجال الذين يطاردون الكمال.
في الخارج، بدأت الثلوج تتشكل فوق بعض أجزاء الجناحين.
راقبها شون بعينٍ خبيرة. ثم قال بلهجة حازمة :
فعل أنظمة إزالة الجليد.
تحرك بن تان فوراً.
و عادت القمره إلى صمتها الإلكتروني البارد.
في تلك اللحظة، شعر شون بإرهاقٍ عميق يسري في عظامه.
خمسة وأربعون عاماً، رقم بدا له فجأة ثقيلًا جداً. تساءل بينه وبين نفسه:
متى أصبح كهلاً ؟ ومتى تحولت الأحلام الكبيرة إلى مجرد جداول عمل ومواعيد هبوط ؟
أغمض عينيه لثوانٍ قصيرة.
فرأى نفسه شاباً صغيراً يقف لأول مرة أمام طائرة تدريب قديمة، وقلبه يكاد ينفجر من الحماسة.
كان يؤمن يومها أن الطيران حرية. لكنه اكتشف لاحقاً أن السماء أيضاً يمكن أن تكون سجنًا واسعاً.
قطع أفكاره صوت برج المراقبة البعيد.
كانت أنكوراج تقترب.
أضواء المدينة ظهرت أخيراً وسط البياض المتجمد، مثل جمرات صغيرة في قلب الثلج.
تنفس بن تان براحة.
سنصل قبل الموعد بدقائق.
أوما شون بهدوء.
ثم نظر مرة أخيرة إلى الليل الممتد خلفهم.

شعر، لسبب لا يفهمه، بحزنٍ غامض. كأن جزءاً منه بقي معلقاً
هناك فوق المحيط الأسود.

قال فجأة :

بن تان،

نعم يا كابتن ؟

هل فكرت يوماً بما سيبقى منا بعد النهاية ؟

تفاجأ المساعد بالسؤال.

ثم ابتسم بحرج.

لا أعرف، ربما الذكريات.

هز شون رأسه ببطء.

الذكريات تموت أيضاً.

ساد الصمت.

ولأول مرة منذ سنوات طويلة، شعر الكابتن شون يونج بخوف
حقيقي. ليس خوف الموت. بل خوف أن يكون قد عاش حياته كلها بعيداً
عن الأشياء التي تستحق الحياة فعلاً.

في تلك اللحظة، كانت الطائرة تهبط ببطء وسط الثلوج، بينما
أضواء أنكورااج تكبر تحتهم شيئاً فشيئاً.

وفي مكانٍ ما من السماء البعيدة، كانت طائرة أخرى تشق طريقها
نحو المطار ذاته.

الرحلة رقم كي 015. التي يقودها الطيار وان هين. والذي لم
يكن يعلم أن بطاقة التهنئة الصغيرة التي تنتظره في أنكورااج، ستصبح
لاحقاً واحدة من أكثر الذكريات إيلاماً في حياة الذين عرفوا الكابتن شون
يونج.

الرحلة 007: ظلال فوق سخالين

كانت السماء في تلك الليلة القطبية تمتد كصفيحة زرقاء باردة، بلا نجوم تقريباً، كأن الغيم ابتلع الضوء، وترك العالم معلّقاً بين العتمة والجليد. وفي الأعالي، كانت الطائرة البوينج، الرحلة 007، تشقّ الفضاء في هدوءٍ مريب، كطائرٍ معدني أعمته الثقة، ومضى نحو قدرٍ لا يراه.

داخل قمرة القيادة، كان الكابتن شون يحدث في الأجهزة بعينين مرهقتين. امتدّت أمامه أضواء العدادات الصغيرة مثل عيونٍ ساهرة، فيما كان صوت المحركات العميق يشبه أنفاس وحشٍ ضخم نائم تحت أقدامهم.

مسح جبينه ببطء، ثم قال لمساعدته بصوتٍ خافت :

كم بقي على الوصول إلى أنكوراج ؟

أجاب المساعد وهو يتفحص الخرائط الإلكترونية :

أقل من ساعة يا كابتن.

هزّ شون رأسه في صمت، لكنه لم يكن يسمع الجواب حقاً. كان شيءٌ ما يثقل صدره منذ بداية الرحلة. إحساسٌ غامض، يشبه يداً خفية تدفعه بعيداً عن الطريق.

أما في مركز رادار أنكوراج، فقد كان الليل أكثر توترًا.

وقف الموظف الشاب، دانيال، أمام الشاشة الخضراء الكبيرة، وعيناه تضيقان شيئاً فشيئاً.

لحظة، هذا غير طبيعي.

رفع زميله رأسه متثاقلاً :

ماذا هناك ؟

أشار دانيال إلى النقطة الصغيرة المتحركة فوق الشاشة.
الرحلة 007، انحرفت عن مسارها.
اقترب الرجل الآخر، وحدّق طويلاً.
كم مقدار الانحراف؟
نحو الشمال، تسعة كيلومترات تقريباً.
ساد صمتٌ ثقيل. ثم قال الرجل الأكبر سناً، وهو يحاول
التخفيف من الأمر :

ربما تعديل بسيط، سيعود الكابتن إلى خط السير بعد قليل.
لكن دانيال لم يفتنع. كانت خبرته القصيرة تخبره أن
الأخطاء الصغيرة في السماء قد تتحول إلى كوارث لا تُمحي.
همس بقلق :

لا، زاوية الانحراف تزداد.
تبادل العاملون النظرات.
وفي الخلفية، كانت أجهزة الاتصال تطنُّ كحشراتٍ
معدنية عصبية.
قال أحدهم :

يجب إبلاغ الرئاسة فوراً.
رد آخر بسرعة :
لا داعي للذعر، أتعمل أن يواصل الكابتن هذا الانحراف
حتى يدخل المجال السوفييتي ؟
لكن الكلمات نفسها بدت باردة، خاوية من اليقين.

في تلك اللحظة، كانت الطائرة بالفعل تتجه نحو الاتحاد
السوفييتي، نحو جزيرة سخالين، حيث الحدود تُراقب بعيونٍ لا
تنام.

>

في قمرة القيادة، بدا كل شيء هادئاً بصورةٍ مخيفة.
المساعد يراجع البيانات. المضيفات يتحركن في الممرات
بابتساماتٍ مهنية متعبة. الركاب غارقون في النوم أو الشرود.
امرأة عجوز كانت تنظر من النافذة إلى السواد الممتد.

قالت لزوجها بصوتٍ مرتجف :

هل ترى شيئاً هناك ؟

ابتسم الرجل ابتسامة واهنة :

لا يوجد سوى الليل.

لكنها لم تجبه. كانت تشعر، دون أن تعرف لماذا ، بأن
الظلام في الخارج حيّ، يراقبهم.

وفي المقاعد الخلفية، كان طفل صغير يضغط وجهه على
الزجاج البارد.

أبي، هل نحن فوق البحر ؟

رد الأب وهو يغلق عينيه بتعب :

نعم، نم قليلاً.

لكن الطفل لم ينم. كان يشعر بأن الطائرة لا تسير
مستقيمة، وأن العالم يميل ببطء.

>

في أنكوراج، ارتفع التوتر أكثر.

قال دانيال :

اتصلوا بمحطة الرادار عالي التردد.

جاءه الرد سريعاً :

لقد حاولنا، الرادار معطل.

التفت الجميع فجأة.

معطل ؟ !

قالها المدير بصوتٍ حاد.

ثم اندفع نحو الأجهزة :

كيف يحدث هذا الليلة بالذات ؟

أجاب الموظف مرتبًا :

لا نعرف، انقطع الإرسال منذ دقائق.

ضرب المدير الطاولة بعصبية.

أين الطائرة الآن؟

فوق مدينة بيتال، تبعد نحو أربعمئة وخمسين كيلومترًا.

ساد الصمت من جديد.

كان كل رجلٍ في الغرفة يشعر بأن شيئًا رهيبًا يتكوّن
بيطء، مثل عاصفة خلف الأفق.

قال دانيال بصوتٍ خافت :

حاولوا الاتصال بالطائرة مباشرة.

بدأت المحاولات. نداءات متكررة. أصوات مشوشة.
صفير طويل يشبه أنينًا بعيدًا. لكن الطائرة بقيت صامتة.
صامتة كقبرٍ يرفض أن يجيب.

>

أما الكابتن شون ، فكان في تلك اللحظة يعيش حربًا
أخرى داخل نفسه.

نظر إلى العدادات ثانية. شيءٌ ما ليس صحيحًا. اقترب
أكثر. قرأ الأرقام. ثم شعر بقشعريرة باردة تسري في ظهره.

همس :

مستحيل،

رفع مساعده رأسه :

ماذا هناك ؟

لم يجب فورًا. ظل يحدق في الشاشة الملاحية كمن يرى
شبحًا. ثم قال بصوتٍ مبحوح :

نحن، لسنا في المسار الصحيح.

اتسعت عينا المساعد.

ماذا تعني ؟

أشار شون بيده المرتجفة :

انظر بنفسك.

اقترب الرجل، وما إن رأى البيانات حتى تجمد وجهه.

يا إلهي،

ساد الصمت داخل القمرة. حتى صوت المحركات بدا

بعيدًا.

قال المساعد أخيرًا :

يجب أن نعود فورًا.

لكن شون لم يتحرك. كان عقله يغرق في دوامةٍ من

الأسئلة.

كيف حدث هذا ؟ هل أخطأ ؟ هل خانته الأجهزة ؟ أم أن

التعب أعمى انتباهه ؟

شعر فجأة بثقل سنوات الطيران كلها فوق كتفيه.

تذكّر أول مرة قاد فيها طائرة. كان يومها شابًا مفعمًا

بالفخر، يظن أن السماء تمنح الطيارين حرية مطلقة. لكن السماء

لا تمنح شيئًا مجانيًا. إنها تختبر البشر دائمًا، ثم تعاقبهم بلا رحمة.

قال بصوتٍ خافتٍ كأنه يحدث نفسه :

لو عرفوا أن الخطأ مني،

رد المساعد بسرعة :

ليس وقت هذا الآن.

لكن شون لم يسمعه جيداً.

كان يسمع أصواتاً أخرى في رأسه. صوت زوجته.

ضحكة ابنته الصغيرة. صوت والده القديم وهو يقول له يوماً :

،الرجل لا يخاف من الخطأ، بل يخاف من لحظة اكتشافه

،

أغمض عينيه لحظة ثم أمسك المقود بقوة.

>

في الجانب الآخر من العالم، كانت الرادارات السوفيتية

قد التقطت الهدف الغريب.

ضابط شاب حدّق في الشاشة و قال :

طائرة مجهولة تقترب من المجال الجوي.

اقرب القائد العسكري بوجه صارم.

هل استجابت للتحذيرات ؟

لا استجابة.

تبادل الرجال النظرات.

في زمن الحرب الباردة، لم يكن هناك مكانٌ للثقة. كل

خطأ قد يكون تجسساً. كل اقتراب قد يكون تهديداً.

قال القائد ببرود :

أرسلوا المقاتلات.

>

في الطائرة، بدأ التوتر ينتشر دون كلمات.
المضيفات لاحظن الوجوه المتغيرة في قمرة القيادة.
إحداهن همست للأخرى :
هناك خطب ما.
وفي المقاعد، بدأ بعض الركاب يشعرون باهتزازاتٍ
خفيفة. الرجل العجوز قرب النافذة فتح عينيه فجأة.
هل سمعتم ذلك ؟
صوتٌ بعيد، كالرعد. لكن السماء كانت صافية.

>

في الخارج، كانت الطائرات المقاتلة السوفييتية تقترب
بسرعة هائلة.
طيار شاب نظر إلى الطائرة المدنية أمامه. بدت ضخمة،
هادئة، ومضيئة وسط العتمة.
قال عبر اللاسلكي:
أستطيع رؤيتها.
جاءه صوت القيادة صارمًا:
أجبروها على الهبوط.
اقترب أكثر. لوح بالأضواء.
لكن الرحلة 007 استمرت في طريقها، كأنها لا ترى
شيئًا.

داخل القمرة، كان شون غارقًا في محاولات التصحيح.
الأجهزة مشوشة. الاتصالات صامتة. والوقت ينفد.
قال المساعد بقلق :
هناك طائرة خلفنا !

التفت شون بسرعة.
رأى الضوء البعيد يقترب.
وفي تلك اللحظة، أدرك الحقيقة كاملة.
همس :

لقد دخلنا المجال السوفييتي،
كانت الجملة ثقيلة كحكم إعدام.

>

في أنكوراج، وقف دانيال أمام الرادار كالمشلول.
النقطة الصغيرة تقترب أكثر من الحدود الخطرة.
قال المدير :
هل وصل أي رد ؟

لا شيء.

ثم فجأة، اختفت الإشارة للحظة. شهق الجميع. وعادت
الإشارة ضعيفة متقطعة. كأن الطائرة نفسها أصبحت شبحًا.

>

أما داخل الرحلة 007، فقد بدأ الركاب يشعرون بالخوف
الحقيقي.

الطفل الصغير أمسك يد أمه :

لماذا الطائرة تهتز ؟

الأم حاولت الابتسام، لكن عينيها كانتا ممتلئتين بالرعب.

وفي الخلف، بدأ رجل يصرخ :

ماذا يحدث ؟ !

لكن أحدًا لم يكن يملك جوابًا.

حتى الكابتن شون نفسه. كان ينظر إلى الظلام أمامه، ويشعر أن السماء كلها أغلقت أبوابها.

ثم جاء الصوت عبر اللاسلكي، حادًا، غريبًا، بلغة لا يفهمها الجميع.

لكن نبرته وحدها كانت كافية. الخطر وصل.

رفع شون رأسه ببطء. وقال بصوتٍ خافت:

سامحيني،

لم يعرف أحد لمن قالها.

لزوجته؟ لابنته؟ لنفسه؟ أم للسماء التي خانته أخيرًا؟

>

وفي الساعة الثانية والدقيقة السابعة، أثبت مطار لوس أنجلوس أن الطائرة البوينج، الرحلة 117، تمر فوق مدينة نيبي بسلام، بينما كانت رحلة 007 تقترب من مصيرها الغامض.

هبطت طائرة لوس أنجلوس في مطار أنكوراج كما كان مقرراً، بعد الرحلة 007 بعشرين دقيقة فقط.

لكن رجال الرادار لم يصفقوا لوصولها. لم يلتفتوا حتى إلى أضواء المدرج. كانت أعينهم معلقة بالشاشة الأخرى، بالشبح الذي مضى شمالاً ولم يعد.

وفي تلك الليلة، بدا العالم كله وكأنه يحبس أنفاسه.

السماء صامتة. الرادارات صامتة.

والبحر البارد تحت سخالين كان ينتظر، بظلامه الأبدي، أن يبتلع آخر أسرار الرحلة 007.

الرحلة 007: الطائرة التي ابتلعها الصمت

في تلك الليلة الثقيلة، بدا الهواء نفسه وكأنه يحمل نذيراً غامضاً. كانت السماء فوق بحر اليابان ملساء على نحو يثير الريبة، صامتة أكثر مما ينبغي، كأنها تخفي في جوفها سرّاً لا تجرؤ الأرض على سماعه. وفي برج المراقبة، حيث تتكدس الشاشات الخضراء وتومض النقاط الصغيرة كنجوم اصطناعية مرتجفة، عاد أفراد طاقم الرادار إلى تبادل النظرات القلقة، ثم إلى الإعلان عن مخاوفهم بصوت أعلى من الهمس، وأقرب إلى الاعتراف بالفرع.

قال أحد الفنيين وهو يحدق في الشاشة بعينين متسعيتين:

الرحلة 007، اختفت.

ساد الصمت للحظة قصيرة، لكنها بدت طويلة بما يكفي ليشيخ فيها قلب إنسان.

اقترب المشرف المناوب بخطوات سريعة، وراح يتفحص الشاشة بنفسه. لم يكن يريد أن يصدق. الطائرات لا تختفي هكذا. ليست الطائرات الحديثة، ولا في هذا الخط الجوي المزدحم، ولا في زمنٍ صارت فيه السماء محكومة بالأجهزة والأقمار والرادارات.

لكنه لم يجد شيئاً. لا نقطة ضوء. لا إشارة. لا ذبذبة مرتعشة. فقط فراغ بارد على الشاشة، كأن الطائرة لم تكن موجودة أصلاً.

تمتم أحدهم بصوت خفيض :

شون لا يرد، لا اتصال، لا أثر.

كان اسم الكابتن شون معروفاً بينهم. رجل هادئ، صارم، لا يخطئ بسهولة. قائد مخضرم، قضى سنوات عمره بين الغيوم حتى صار يشعر بأن الأرض مكان مؤقت، وأن السماء وطنه الحقيقي.

قال الموظف الأصغر سناً، وقد بدأ الذعر يتسلل إلى نبرته :

كان من المفترض أن تصل قبل طائرة لوس أنجلوس ، لقد تأخرت كثيرًا.

رفع آخر سماعة الاتصال بعصية، ثم أعادها بعنف :
لا استجابة، لا أحد يجيب.

ومن خلف الزجاج العريض لبرج المراقبة، كانت أضواء المطار تلمع مثل عيون قلقة تنتظر خبرًا لا يأتي.

قال المشرف أخيرًا، محاولاً التشبث بأي تفسير منطقي :
ربما اضطر شون للهبوط في مطار ياباني.
التفت الجميع نحوه كأنهم يتمسكون بخيط نجاة هش.
لكن أحدهم سأله سريعًا :

ولماذا يفعل ذلك ؟ وإذا هبط فعلاً، لماذا لم يرسل أي إشارة ؟
لماذا لم تتمكن من الاتصال به ؟

لم يجد المشرف جوابًا. كان السؤال أكبر من الاحتمالات كلها.

في تلك اللحظة شعر كل واحد منهم بأن شيئاً غير طبيعي يحدث في السماء. شيئاً يتجاوز الأعطال التقنية وأخطاء الملاحة. شيئاً أقرب إلى يد خفية أغلقت باباً كاملاً من أبواب العالم.

أصدر المشرف أوامره بصوت متوتر:

اتصلوا بكل المطارات اليابانية فوراً، كلها بلا استثناء.

بدأت الاتصالات تتدفق كالمطر، والأسئلة تتكرر، لكن الإجابات ظلت متشابهة ومخيفة :

لا أثر للطائرة. لا هبوط اضطراري. لا رسالة استغاثة. لا

شيء.

>

لم يكن ممكناً إخفاء خبر اختفاء الطائرة طويلاً. الأخبار، حين تتعلق بالموت، تمتلك أجنحة أسرع من الطائرات نفسها.

في صالات الانتظار، بدأت الوجوه تتغير. نساء يضغطن على حقائبهن بعصبية، أطفال يسألون عن آبائهم، رجال يحاولون التظاهر بالتماسك بينما الخوف ينهشهم من الداخل كحيوان جائع.

كانت أم شابة تجلس قرب النافذة تضم طفلتها الصغيرة إلى صدرها. سألت موظفة الاستعلامات للمرة الخامسة:

هل تأكدتم أنها لم تهبط؟

لم تعرف الموظفة ماذا تقول. كانت الكلمات الرسمية تنهار داخل حلقتها قبل أن تخرج.

وفي زاوية أخرى، كان رجل مسن يحمل صورة ابنه، يحدق فيها كأنه يخشى أن ينسى ملامحه إن طال الانتظار.

أما الصحفيون فقد بدأوا يتجمعون مثل الغربان حول الخبر الغامض، يلتقطون الشائعات قبل الحقائق، وينفخون في القلق حتى صار المطار كله أشبه بقلب ضخم يرتجف.

وفجأة، انقطع بث موسيقي على الراديو الكوري، ثم جاء صوت المذيع واضحًا لكنه متوتر:

نطمئن أسر ركاب الطائرة البوينج 747 في الرحلة رقم 007، لقد علمنا منذ لحظات أن الطائرة اضطرت إلى الهبوط بسلام في جزيرة سخالين السوفيتية، وأن جميع الركاب وأفراد الطاقم بخير ويتمتعون بصحة جيدة.

انتشر الخبر في الصالة كالماء في أرض عطشى.

بعض النساء بكين من الفرح. رجل سجد شاكرًا. آخر أخذ يضحك بعصبية كأنه نجا لتوه من موت شخصي.

لكن الفرحة لم تعش طويلاً.

في برج المراقبة، لم يبداً أحد مرتاحًا.

قال أحد الضباط ببطء:

هذا مستحيل.

سأله زميله:

لماذا؟

أجاب وهو يحدق في الخرائط الجوية :
لو هبطت هناك، لظهرت إشارة، لحدث اتصال، لالتقطنا أي شيء.

ثم أضاف بصوت أثقل :
لكن السماء صامتة.
كان الصمت في تلك الليلة مرعباً أكثر من أي انفجار.

>

وفي مكان ما، خلف جدران السياسة السميكة، كانت الحقيقة تُذبح
ببطء. الأمريكيون يخفون شيئاً. الكوريون مرتبكون. والسوفييت
يلتزمون صمناً معدنياً بارداً.
كل طرف يعرف جزءاً من الكارثة، لكن أحداً لا يريد أن يرى
الصورة كاملة.

بدأ الشك يتسلل إلى النفوس مثل دخان خفي.
إذا كانت الطائرة قد هبطت فعلاً، فلماذا لا يسمح لأحد بالتواصل
مع الركاب؟ ولماذا لا توجد صور؟ ولماذا يبدو البيان الرسمي مرتباً
ومقتضباً إلى هذا الحد؟

في إحدى الغرف المغلقة، جلس مسؤول أمني أمريكي أمام شاشة
سوداء، يدخل بصمت. كان يدرك أن ما حدث لن يبقى مجرد حادث
طيران. لقد صار أزمة دولية، وربما بداية شرخ جديد في الحرب الباردة.
قال له أحد الضباط :

الروس ينكرون أي معرفة.
ابتسم المسؤول ابتسامة باهتة وقال :
الروس لا ينكرون إلا الأشياء الحقيقية.

>

أما الكابتن شون، ففي الساعات الأخيرة قبل اختفاء الطائرة، كان
يشعر بشيء غامض يثقل صدره. جلس في قمرة القيادة، يحدق في
العتمة الممتدة خارج الزجاج الأمامي. السماء ليلاً كانت تبدو له أحياناً
مثل محيط بلا قاع، وكل طائرة مجرد ورقة صغيرة فوق هاوية لا تنتهي.

سمع صوت مساعده يسأله :

هل أنت بخير يا كابتن ؟

أجاب بعد لحظة صمت :

نعم، فقط أشعر أن الليل مختلف اليوم.

كان التعب قد نحت خطوطاً دقيقة حول عينيه، لكن الفلق الذي داخله لم يكن تعباً عادياً. كان إحساساً بدائياً بالخطر، يشبه ذلك الصوت الداخلي الذي يوقظ الإنسان قبل وقوع الكارثة بثوانٍ.

نظر إلى الأجهزة أمامه. كل شيء طبيعي. الارتفاع طبيعي السرعة طبيعية. المسار يبدو طبيعياً.

ومع ذلك، كان قلبه يقول العكس.

وفجأة، التقطت عيناه شيئاً غريباً على أحد المؤشرات.

اقترب أكثر. تغير خفيف في المسار. ضئيل جداً، لكنه موجود.

قال لمساعدته:

تحقق من الإحداثيات.

بدأ التوتر يتسلل ببطء إلى قمرة القيادة.

ثم جاءت الإشارة المشوشة. ثم الصمت.

ثم ذلك الشعور الرهيب بأنهم لم يعودوا وحدهم في السماء.

>

مرت الساعات ثقيلة. وفي كل بيت كان ينتظر عودة أحد الركاب، كانت المأساة تنمو بصمت.

امرأة شابة جلست قرب الهاتف حتى الفجر، تحرق فيه كأنه قد ينطق باسم زوجها. طفل نام ممسكاً بصورة أبيه. أم عجوز أخذت تتمتم الأدعية حتى جف صوتها.

أما العالم، فقد بدأ يكتشف شيئاً مرعباً :

الطائرة لم تختفٍ وحدها. الحقيقة أيضاً اختفت معها.

>

وفي الأيام التالية، راحت الروايات تتضارب كأموج عاصفة. هناك من قال إن الطائرة انحرقت عن مسارها. آخرون تحدثوا عن مطاردة عسكرية. بعضهم همس بكلمة ، إسقاط ،. والبعض فضل الصمت، لأن الحقيقة حين ترتبط بالدول العظمى تصبح أخطر من الحرب نفسها.

لكن المؤكد الوحيد كان هذا :

في تلك الليلة، عبرت الرحلة 007 سماءً مشبعة بالخوف، والسياسة، وسوء الظن، ثم ابتلعها الظلام كما تبتلع البحار السفن القديمة. ولم يبقَ منها سوى أسئلة معلقة في الهواء، أسئلة لم يجب عنها أحد حتى الآن.

ظلال فوق سخالين

الليلة التي ضاعت فيها الرحلة 007

بين البحر والثلج والنار

كانت جزيرة هوكايدو اليابانية تغطى في صمت أبيض يشبه صمت المقابر القديمة.

الريح القادمة من بحر أوخوتسك كانت تضرب نوافذ محطة الرادار في مطار، وكاني، كأنها أصابع أرواح ضائعة تطلب الدخول. وفي تلك الليلة الباردة، عند الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة فجراً، كان الضوء الأخضر المرتعش فوق شاشة الرادار يتحرك ببطء غريب، كأن الطائرة نفسها فقدت يقينها بالطريق.

جلس، هيروشي تاكامورا،، مسئول الرادار الياباني، أمام الشاشة المحدبة، يحدّق في البقعة المضيئة بعينين أرقههما السهر الطويل. لم يكن الليل جديداً عليه، ولا الوحدة، ولا أصوات الأجهزة المعدنية التي تشبه أنفاس مريض يحتضر. لكنه شعر في تلك الليلة بشيء مختلف، شيء ثقيل يهبط على قلبه مثل صخرة باردة.

رفع سماعة الاتصال، وجاءه الصوت المتقطع من السماء :

هنا الرحلة الكورية 007، نطلب تعديل الارتفاع،

كان الصوت مشوشاً، متعباً، كأن المتحدث يلهث من داخل حلم

مكسور.

نظر هيروشي إلى الساعة المعلقة فوق الجدار. الثالثة وخمس عشرة دقيقة. نفس توقيت كوريا.

قال بصوت رسمي حاول أن يخفي ارتجافه :

يسمح لكم بتعديل الارتفاع، كرروا الإحداثيات،

لكن الرد جاء متكسراً، تغمره ذبذبات حادة كأن الريح نفسها تعبت

بالإشارة.

ثم انقطع الصوت. ساد الصمت. صمت ثقيل حتى إن هيروشي

سمع خفقان قلبه.

مدّ يده نحو فنجان القهوة البارد، لكنه لم يشرب. ظلّ ينظر إلى البقعة الخضراء فوق الشاشة، وتسلل إلى داخله ذلك الإحساس الياباني القديم الذي يسميه أبوه : ، ظل الكارثة قبل وقوعها.

بعد ربع ساعة تقريباً، حاولت الطائرة الاتصال مرة أخرى. غير أن الإرسال كان أسوأ. ضوضاء حادة، تشويش متداخل، كلمات مبتورة، وأنفاس متقطعة. كأن شخصاً ما يخنق السماء نفسها.

أبلغوا مطار ،أنكوراج، بما حدث، واستمر الرصد الياباني للطائرة عبر شبكات الرادار الممتدة بين الجزر الشمالية.

لكن الأسئلة بدأت تتكاثر في رأس هيروشي مثل غربان سوداء.

لماذا كان الإرسال مشوشاً ومضطرباً ؟ لماذا بدا وكأن الطائرة تفقد الوقود بسرعة غير طبيعية ؟ والأخطر من ذلك كله، لماذا كانت الطائرة تظهر أحياناً وتختفي أحياناً أخرى من على شاشات الرادار ؟

شعر هيروشي ببرودة تسري في عموده الفقري.

كان قد خدم سنوات طويلة قرب الحدود السوفيتية، ويعرف جيداً أن السماء فوق سخالين ليست مجرد سماء، بل حقل أعصاب مشدود بين قوتين عظميين.

هناك، فوق المياه المتجمدة، يمكن لخطأ صغير أن يشعل العالم

كله.

دخل رئيس المحطة ،كازو سيتو، إلى غرفة الرادار بخطوات سريعة. كان رجلاً تجاوز الخمسين، ذا وجه جامد كصخور المرافئ الشمالية، لكن عينيه الليليتين كانتا تخفيان خوفاً عميقاً لا يعترف به أبداً.

قال بصوت خافت :

هل ما تزال الطائرة على الشاشة؟

أشار هيروشي نحو الرادار.

تظهر، ثم تختفي يا سيدي.

اقرب كازو، وانحنى فوق الجهاز.

وفجأة قال هيروشي باضطراب :

ما هذا؟ ألا ترى يا سيدي أربع بقع على الشاشة؟

ضاقت عينا كازو.

أجل، البقعة الكبيرة هي الرحلة الكورية 007، لكن، ماذا عن

البقية؟

ظلّ الصمت معلقاً بين الرجلين.

ثم قال هيروشي :

الثانية تبدو قريبة جداً من الطائرة الكورية، أعتقد أنها طائرة

أمريكية.

استدار كازو إليه بعنف.

ماذا؟ طائرة أمريكية فوق سخالين؟

هذا جنون، هذا في منتهى الخطورة.

كانت الحرب الباردة آنذاك تشبه ناراً مدفونة تحت الثلج. كل

شيء هادئ في الظاهر، لكن العالم كله كان يعيش فوق برميل بارود

نووي.

أشار هيروشي إلى نقطتين صغيرتين تقتربان بسرعة.

أما هاتان، فنحن نعرفهما جيداً.

قال كازو ببطء :

مقاتلتان سوفيتيتان.

ساد الصمت مرة أخرى.

في الخارج، كانت الريح تعوي بين أبراج المطار كذئب جريح.

قال كازو :

حاول التقاط أي إشارات بين الطائرات الأربع. اذهب إلى غرفة الاتصالات، سأبقى أنا هنا.

أسرع هيروشي نحو غرفة الإشارات ، لكن داخله كان يغرق في قلق لا تفسير له.

في الممر الضيق شعر فجأة بثقل الذكريات.

تذكر أباه، الجندي الياباني العائد من الحرب العالمية الثانية، حين كان يقول له دائماً :

، الحروب لا تبدأ بالرصاص يا هيروشي، بل بالخوف ،
وكان الخوف الآن يملأ المكان كله.

دخل غرفة الإشارات ، وارتدى سماعته الكبيرة. الذبذبات تملأ الأثير .أصوات روسية سريعة.شيفرات عسكرية. صفير إلكتروني متواصل.

ثم،

جملة إنجليزية قصيرة متقطعة:

.الوقود، منخفض،

توقف قلبه لحظة. أعاد رفع الصوت. لكن التشويش ابتلع الكلمات. شعر كأن السماء كلها تتحول إلى ضباب.

في تلك اللحظة بالتحديد، لم يعد هيروشي يرى الطائرة كرقم على الشاشة، بل تخيل الوجوه داخلها.نساء نائمات قرب النوافذ. رجل أعمال يقرأ مجلة أمريكية. طفل ينظر إلى النجوم من خلف الزجاج. مضيئة تحاول الابتسام رغم الإرهاق. أناس عاديون تماماً، لا يعرفون أنهم يقتربون من حدود الموت.

ضغط السماعات بقوة فوق أذنيه، كأنه يريد أن ينقذهم بمجرد السمع.

وفجأة دوى صوت روسي حاد في الأجهزة. صوت أمر عسكري.

ثم صمت. ثم تشويش أعنف من السابق.

وفي غرفة الرادار، كان كازو يحدق مذهولاً في الشاشة.

البقع الأربع بدأت تتقارب. الطائرة الأمريكية. الطائرة الكورية.
والمقاتلتان السوفيتيتان. كأن السماء تتحول إلى فخ.

تمتم كازو :

يا إلهي، ماذا يحدث هناك ؟

لم يجبه أحد.

في تلك اللحظات، كانت السياسة العالمية كلها تنقلص داخل غرفة
صغيرة مضاءة بأجهزة خضراء باهتة.

واشنطن . موسكو . سيول . طوكيو . كل تلك العواصم العملاقة
اختُصرت في نقاط مضيئة ترتجف فوق شاشة رادار.

عاد هيروشي مسرعاً.

الإشارات السوفيتية تزداد حدة، هناك أوامر اعتراض.

نظر إليه كازو بصمت.

ثم قال :

وهل ردت الطائرة الكورية ؟

هز هيروشي رأسه ببطء.

لا شيء واضح، فقط تشويش.

وقف الرجلان أمام الشاشة، عاجزين. كانا يشبهان طبيبين يراقبان
مريضاً ينزف خلف زجاج سميك دون القدرة على لمسه.

وفجأة ، اختفت البقعة الكبيرة. اختفت الرحلة 007.

اتسعت عينا هيروشي.

لقد اختفت !

ضرب كازو الجهاز بيده بعصبية.

مستحيل، ابحت عنها !

تحركت أصابع هيروشي بسرعة فوق أجهزة التتبع.

ثوانٍ طويلة مرت كأنها سنوات. ثم ظهرت البقعة ثانية، باهتة،
متقطعة.

قال هيروشي هامساً :

كأنها تحتضر،

لم يرد كازو. كان وجهه شاحباً بصورة مخيفة. في أعماقه، كان يعرف شيئاً لا يريد الاعتراف به.

السماء فوق سخالين لا ترحم الغرباء.

في الخارج ، بدأ الفجر الرمادي يتسلل ببطء فوق البحر. ضوء حزين يشبه وجه أم تنتظر ابنها المفقود.

وفي مكان ما بعيداً فوق المياه المتجمدة، كانت طائرة مدنية تحمل عشرات الأرواح تتحرك وسط شبكة معقدة من الشكوك العسكرية والخوف السياسي وسوء التقدير.

الإنسان حين يخاف، يصبح أعمى. وهذا ما كان يحدث للعالم كله آنذاك.

همس هيروشي :

لو أنهم عرفوا فقط أن داخل تلك الطائرة بشراً عاديين،

أجابه كازو بصوت متعب :

في زمن الحرب الباردة، البشر يتحولون إلى ظلال على الرادار.

ثم، فجأة، اختفت البقعة نهائياً. هذه المرة لم تعد.

تجمدت أنفاس الغرفة.

حدّق الرجلان في الشاشة الخضراء الفارغة.

لا شيء. فقط الصمت. صمت كثيف، مرعب، يشبه اتساع المحيط ليلاً.

شعر هيروشي بأن العالم أصبح أكبر من احتمالته. كل تلك التكنولوجيا، كل تلك الرادارات، كل الأقمار الصناعية، وكل الجيوش النووية، ومع ذلك، لم تستطع البشرية أن تمنع اختفاء طائرة في السماء.

قال بصوت مكسور:

انتهى الأمر،

لكن كازو لم يجب. ظلّ ينظر إلى الشاشة طويلاً، كأنه ينتظر معجزة صغيرة. ثم جلس ببطء على الكرسي المعدني.

وفي تلك اللحظة، بدا عجوزاً جداً. أكثر مما ينبغي لرجل عاش عمره بين الأجهزة العسكرية والانضباط الياباني الصارم. قال أخيراً :

سيكتب السياسيون التقارير، وسيكذب العسكريون، وستتهم الدول بعضها البعض،

ثم رفع عينيه نحو الظلام خلف الزجاج.

لكن البحر وحده سيعرف الحقيقة.

سكت قليلاً. وأضاف:

والبحر لا يتكلم.

في الخارج، كانت الثلوج تتساقط بهدوء فوق مدرجات المطار الياباني البعيد. هدوء جميل، ومخيف.

أما داخل هيروشي، فقد بقي سؤال واحد فقط يدور كجرس جنائزي لا يتوقف :

هل ضلت الطائرة طريقها حقاً ؟ أم أن العالم، بكل خوفه وجنونه، هو الذي أضاعها ؟

ومنذ تلك الليلة، كلما جلس هيروشي أمام شاشة رادار ورأى نقطة ضوء تعبر السماء، كان يشعر أن الأرواح لا تختفي تماماً.

بعض الرحلات تظل عالقة إلى الأبد ، بين الغيوم ، وبين ذاكرة البشر.

حين احترق الليل فوق سخالين

كان الليل فوق بحر اليابان ممتدًا كعباءةٍ حدادٍ سوداء، ثقيلة، لا يخرقها سوى ضوء الأجهزة الخافت وصفير الريح الباردة التي تضرب جدران مركز الرادار الأمريكي في أقصى الشرق.

في تلك الليلة، بدا العالم كله كأنه يحبس أنفاسه داخل غرفة ضيقة تنن فيها الأجهزة الإلكترونية ككائنات حية خائفة.

وقف الضابط، ريتشارد هولمز، أمام الشاشة الكبيرة، وعيناه مثبتتان على بقعة مضيئة تتحرك ببطء فوق الخرائط الإلكترونية.

كانت الطائرة الكورية. رحلة مدنية عادية، تحمل عشرات الأرواح النائمة بين المقاعد، وأحلامًا صغيرة لا تعرف شيئًا عن الحرب الباردة التي كانت تلتهم العالم في صمت.

رفع ريتشارد يده إلى سماعة الرأس، وأخذ يحدق في الخط المتعرج الذي ترسمه الطائرة على الشاشة.

كان يشعر بشيء غامض، شيء يشبه القلق القديم الذي يسبق الكوارث الكبرى. ذلك النوع من الإحساس الذي لا يمكن تفسيره، لكنه يهبط على القلب فجأة كطائر شوم.

ثم حدث الأمر. اختفت البقعة. في لحظة قصيرة، باردة، قاسية، اختفى الضوء.

تراجع ريتشارد خطوة إلى الخلف كأن أحدهم لكمه في صدره، واتسعت عيناه بذهول. ضغط أزرار التتبع بسرعة، أعاد ضبط الموجات، حرّك المؤشر، لكن الشاشة بقيت فارغة كسماء مطفأة.

همس بصوت متحشرج :

مستحيل،

وفي تلك اللحظة دخل زميله، مايكل أندروز، من غرفة الإرسال، وكان وجهه شاحبًا على نحوٍ مخيف، كأن الدم انسحب منه دفعة واحدة.

قال بصوت خافت متوتر :

الأمر بالغ الخطورة.

التفت إليه ريتشارد بسرعة:

ماذا هناك ؟

اقترب مايكل، ثم نظر حوله بحذر قبل أن يجيب :

أعتقد أن الطائرة البوينج الكورية أسقطت بصواريخ سوفيتية.

ساد الصمت. ذلك الصمت الثقيل الذي يسبق الانفجار.

حدّق ريتشارد فيه طويلًا، ثم قال ببطء :

والطائرة الأمريكية ؟

ابتلع مايكل ريقه وقال :

شاهدتها تبعد عن مكان العمليات.

أطرق ريتشارد رأسه لحظة، ثم عاد يرفع عينيه إليه في توتر :

وكيف تجزم بأن الطائرة الكورية أسقطت بصواريخ سوفيتية ؟

اقترب مايكل أكثر، حتى بدا صوته كهمس داخل قبر :

سجلت الحديث المضطرب الذي دار بين قائد إحدى الطائرات

السوفيتية والمحطة الأرضية للمراقبة في سخالين.

شعر ريتشارد ببرودة تسري في أطرافه.

سخالين.

الاسم وحده كان كافيًا لإشعال التوتر في الأعصاب. جزيرة معزولة، محاطة بالصقيع والرعب والأسرار العسكرية. هناك، حيث كانت الحرب الباردة تتحول أحيانًا إلى أصابع تضغط الزناد فعلاً.

جلس ريتشارد ببطء على الكرسي ، بينما أخذت أفكاره تتزاحم داخل رأسه بصورة فوضوية . كان يدرك أن العالم لا يحتاج سوى خطأ واحد كي يشتعل . صاروخ واحد. قرار متسرع. ضابط مذعور. طيار مرتبك. وأحيانًا، مجرد سوء فهم.

قال وهو يمسخ جبينه :

ماذا دار بينهما بالتحديد ؟

رفع مايكل شريط التسجيل الأسود بين أصابعه كأنه يحمل دليل جريمة كبرى.

كل شيء هنا يا سيدي.

ثم أردف بصوت مرتبك :

في البداية لم أفهم سوى كلمات متقطعة، طائرة تجسس أمريكية فوق سخالين، تأكد من اتخاذها الطائرة الكورية ستارًا، قطب ريتشارد حاجبيه.

هذا يعني أن طائرة تجسس أمريكية كانت تختبئ خلف الطائرة الكورية حتى لا تظهر على الرادار ؟
هز مايكل كتفيه بتردد :

ربما، لست واثقًا، الكلمات ممزقة ومبتورة، وما قلته مجرد استنتاج شخصي، ثم إنني لا أجيد الروسية جيدًا.

لكن ريتشارد لم يكن يصغي تمامًا. كان غارقًا داخل نفسه. داخل خوفه. داخل ذلك السؤال المرعب الذي بدأ يتمدد في عقله كدخان أسود :
،ماذا لو كان الأمر حقيقيًا ؟ ،

تخيل للحظة عناوين الصحف .اجتماعات الطوارئ. البيت الأبيض. الكرملين. الغضب الشعبي. الانتقام.

الصواريخ النووية التي تنتظر منذ سنوات إشارة الجنون الأخيرة.
أغمض عينيه للحظة.

تذكر زوجته وهي تضحك صباحًا قرب النافذة. تذكر ابنه الصغير وهو يطلب منه ألا يتأخر هذه الليلة. وفكر فجأة، برعب صامت :

هل يمكن أن ينتهي العالم بسبب نقطة مضيئة اختفت على شاشة؟،

قطع مايكل شروده قائلاً :

هناك شيء آخر.

رفع ريتشارد رأسه بسرعة :

ماذا؟

قال مايكل بصوت أكثر انخفاضاً :

سمعت كلمات متقطعة أيضاً، مثل: ،المهم إسقاط الأمريكية،
ابتعدوا عن الكورية،

تجمد ريتشارد في مكانه. ثم سأل ببطء شديد:

متى سمعت هذه الكلمات بالتحديد؟

فتح مايكل دفتر الملاحظات المرتجف بين يديه وقال :

الثالثة وثمانٍ وثلاثون دقيقة.

ضرب ريتشارد الطاولة بعنف وهو يهمس :

يا إلهي،

ثم رفع عينيه إلى الشاشة الفارغة.

إنها نفس اللحظة التي اختفت فيها الطائرة الكورية من الرادار.

ساد الصمت مجدداً. لكن الصمت هذه المرة كان أشبه بمقبرة
مفتوحة.

قال ريتشارد بصوت متحطم :

وبعدها اختفت الطائرة الأمريكية أيضاً،

ثم نظر إلى مايكل مباشرة:

أمعنى هذا أنهم أسقطوا الطائرتين؟

هز مايكل رأسه سريعاً :

لا أظن، الأمريكيون لم يعلنوا سقوط أي طائرة لهم.

اقترب ريتشارد من الزجاج المطل على ظلام البحر. كانت الأضواء البعيدة ترتجف فوق المياه السوداء، بينما ظل عقله يدور داخل دوامة من الشكوك.

كان يعرف الاتحاد السوفييتي جيداً. يعرف خوفه المزمّن من الاختراقات الأمريكية، يعرف كيف تتحول الأنظمة العسكرية المتوترة إلى وحوش مذعورة عندما تشعر بالخطر. لكنه كان يعرف شيئاً آخر أيضاً.

الحقيقة تموت أولاً في الحروب.

جلس ببطء، ثم طلب تشغيل التسجيل.

امتلأت الغرفة بأصوات مشوشة متداخلة، كلمات روسية سريعة، صرخات متقطعة، تشويش إلكتروني حاد يشبه أنيناً معدنياً صادراً من قلب آلة تحتضر.

وفجأة دوى صوت غاضب داخل السماعات. صوت طيار سوفييتي. كان متوتراً، مرتبكاً، خائفاً. ثم تلاه صوت آخر أكثر برودة، صادر من المحطة الأرضية.

أصغى ريتشارد بعناية. لم يكن يفهم الروسية، لكنه كان يفهم شيئاً آخر أعمق من اللغة:

الخوف. الخوف ذاته كان حاضراً في النبرات. خوف الرجال الذين يعرفون أنهم قد يشعلون حرباً عالمية بضغط إصبع. توقف التسجيل فجأة.

ثم عاد صوت حاد يقول بالروسية كلمات قصيرة متقطعة.

ترجمها مايكل هامساً:

الهدف يقترب، لا تسمح له بالهروب،

ثم تشويش. ثم جملة أخرى:

أطلق النار.

ارتجفت أصابع ريتشارد.

وفي تلك اللحظة شعر بثقل العالم كله فوق كتفيه. لم تعد المسألة مجرد طائرة. لقد أصبحت أرواحاً، وسياسة، واحتمال حرب.

قال بصوت مبجوح :
هل أنت متأكد من الترجمة ؟
رد مايكل بصراحة مرهقة :
لا، لكنني متأكد من شيء واحد فقط،
ماذا ؟
كان هناك زعر حقيقي في أصواتهم.
أطرق ريتشارد رأسه.
الذعر. إنه أكثر الأشياء خطورة في الجيوش.
الرجل الغاضب يمكن توقعه. أما الرجل الخائف، فقد يضغط
الزناد قبل أن يفكر.
عاد التسجيل يعمل. صوت تنفس متسارع. إنذار إلكتروني.
أوامر عسكرية قصيرة.
ثم فجأة ، صمت. صمت طويل، موحش، ثقيل. كأن البحر نفسه
توقف عن التنفس.
نظر مايكل إلى الشاشة ، ثم قال :
بعد هذه اللحظة مباشرة اختفت الطائرة الكورية.
شعر ريتشارد بغصة تخنقه.
تخيل الركاب في الداخل. امرأة تعدل غطاء طفلها النائم. رجل
أعمال يراجع أوراقه. فتاة تنتظر من النافذة إلى الغيوم دون أن تعرف أن
الموت يقترب بسرعة الصوت.
كم يبدو البشر ضعفاء أمام قرارات لا يعلمون عنها شيئاً.
هم مجرد أسماء على قوائم السفر، بينما الرجال في غرف
السياسة والعسكر يتعاملون معهم كأرقام.
همس ريتشارد لنفسه :
يا له من عالم قاسٍ،
ثم غرق في صمته الداخلي.

كان يشعر بشيء يشبه الذنب، رغم أنه لم يضغط أي زر، ولم يطلق أي صاروخ.

لكنه أدرك فجأة أن الجميع شركاء في هذا الجنون بطريقة ما ، العلماء الذين صنعوا الصواريخ. السياسيون الذين غدّوا الكراهية. الجنرالات الذين عاشوا على الخوف.

وحتى هو، الرجل الجالس خلف شاشة الرادار.

كان العالم كله يسير فوق حافة هاوية، ويتظاهر بأنه متزن.

رفع رأسه أخيرًا وقال بحزم متعب :

يجب حفظ التسجيلات فورًا.

فعلت.

ولا كلمة للإعلام الآن.

هز مايكل رأسه.

ثم سأل بصوت متردد :

هل تعتقد أن السوفييت كانوا يقصدون الطائرة المدنية فعلاً ؟

ساد صمت طويل.

ثم قال ريتشارد ببطء :

أحيانًا، لا يهم ما الذي كنت تقصده، الكارثة تحدث على أي حال.

خارج المركز، كانت الريح تعصف بعنف فوق البحر البارد. أما في الداخل، فقد بقيت الشاشة خالية إلا من خطوط إلكترونية شاحبة، كأنها شاهد قبر مضيء لطائرة ضاعت في ظلام السياسة والحرب والخوف الإنساني.

وفي مكان بعيد فوق المياه السوداء، كانت بقايا الطائرة تهبط ببطء نحو الأعماق، بينما تتناثر حولها حقائب صغيرة، وصور عائلية، وألعاب أطفال، ورسائل حب لم تصل أبدًا.

أما العالم، فقد كان على وشك أن يستيقظ على صباح أكثر خوفًا من كل ما عرفه من قبل.

الصمت الذي أسقط الطائرة حكاية الليلة التي احترق فيها البحر بين موسكو وطوكيو

كان الليل الآسيوي يتمدد فوق البحر كعباءة سوداء مطرزة بالبرد والغيوم، وكانت الأضواء اليابانية البعيدة ترتجف على صفحة الماء مثل شموع تُقاوم ريحًا خفية.

في تلك الليلة، لم تكن السماء مجرد فضاء للطيران، بل كانت ساحة عميقة لصراع لا يُرى؛ صراع أجهزة استخباراتية، وجنرالات يرتجفون خلف الخرائط، وطيارين يحملون في صدورهم خوفًا أكبر من المحيط نفسه.

السؤال الذي ظلّ يطاردني، حتى بعد مرور الأعوام، لم يكن :
ماذا أسقطت الطائرة الكورية ؟ بل: لماذا دخلت أصلًا المجال الجوي السوفييتي دون إذن ؟

ثم سؤال آخر، أكثر ظلمةً، وأكثر قدرةً على تمزيق النوم من عيون الرجال :

لماذا كانت تسير بمحاذاتها طائرة أمريكية ؟

أحيانًا، حين تتشابك السياسة بالحرب، تصبح الحقيقة شبحًا يمرّ أمامك ثم يختفي قبل أن تمسك بطرف معطفه.

ومن يدري ؟ لعلّ المخابرات الأمريكية كانت قد رتبت كل شيء بعناية باردة؛ أن تسيّر طائرة التجسس قرب الطائرة المدنية الكورية، قريبةً منها حدّ الالتباس، حتى تختلط الإشارات على الرادارات السوفيتية، فلا يميّز الجنود في غرف المراقبة بين جناحين مدنيين يحملان مئات الأبرياء، وجناحين معدنيين يلتقطان أسرار الإمبراطورية الحمراء.

لم أكن أعرف الكابتن شون معرفةً شخصية، ولم أجلس معه يوماً على طاولةٍ واحدة، لكنني كنت أعرف شيئاً واحداً عن الطيارين :
الطيار الذي يحمل أرواح الناس في السماء لا يغامر بسهولة.
لا يمكن لرجلٍ قضى عمره يدرّب يديه على النجاة أن يُلقى بطائرته عمدًا في فم الموت.

إدًا، ماذا حدث ؟ هل أخطأ ؟ أم أنه وثق أكثر مما ينبغي بقدرة التكنولوجيا الأمريكية على حمايته ؟ أم أنه كان جزءًا من لعبةٍ أكبر منه، لعبةٍ تُدار من خلف زجاجٍ معتم، حيث يتحرك البشر كقطع شطرنجٍ لا تعرف إلى أين تُدفع ؟

كنت أستعيد تلك الأسئلة وأنا أراقب الشريط يدور أمامي في بطن. أصوات متقطعة، إشارات رادار، ومضات ضوءٍ أخضر، ثم صمت. كان الصمت أكثر رعبًا من أي انفجار.

>

في الجانب الآخر من البحر، داخل المراكز العسكرية السوفيتية، كان الجنود يجلسون أمام الشاشات المضيئة بوجوهٍ شاحبة.

لم يكونوا يرون طائرةً فقط، بل كانوا يرون احتمال حرب.

لقد علمتهم الحرب الباردة أن يشكّوا في كل شيء.

الغيوم قد تخفي قنبلة، والطائرة المدنية قد تكون قناعًا لطائرة تجسس، وحتى الصمت قد يكون مقدمةً لصاروخٍ نووي.

أحد الضباط السوفييت، واسمه العقيد ماليتشيف، كان يحدث في الشاشة بعينين مرهقتين.

منذ أسبوعين لم ينم إلا ساعاتٍ قليلة. زوجته أرسلت إليه رسالةً قصيرة تخبره أن ابنه يسأل عنه كل ليلة، لكنه لم يجد وقتًا للرد.

تمتم بصوتٍ خافت :

إنهم يختبرون أعصابنا.

ردّ الضابط الأصغر بجواره :

ربما تكون مجرد طائرة ضلّت طريقها.

ضحك العقيد ضحكةً يابسة :

في هذا العالم لا توجد طائرات تضلّ طريقها مصادفة.

ثم عاد يحدث في النقطة المضيئة على الشاشة. النقطة كانت تتحرك بثبات، وكأنها تعرف طريقها جيداً.

في تلك اللحظة، كان الكابتن شون داخل قمرة القيادة يغالب توترًا يتسرّب ببطء إلى أعصابه. أضواء العدادات أمامه كانت تبدو كنجوم صغيرة معلقة في العتمة.

ورغم هدوئه الظاهري، كان يشعر أن شيئاً غير طبيعي يحدث.

قال مساعده بصوتٍ مرتبك :

سيدي ، هناك إشارات غريبة على أجهزة الملاحة.

أجاب شون دون أن يرفع عينيه :

حافظ على المسار.

لكننا نقرب من منطقة حساسة.

ساد الصمت لحظةً طويلة.

ثم قال شون، وكأنه يحدث نفسه لا مساعده :

أحياناً لا يعود بإمكان الرجل التراجع بعد منتصف الطريق.

التفت المساعد إليه بدهشة :

ماذا تقصد ؟

لكن شون لم يُجب. كان يفكر في شيءٍ آخر. في التعليمات الغامضة التي تلقاها قبل الرحلة. في ذلك الرجل الأمريكي الذي صافحه طويلاً في المطار، ثم قال له بابتسامة باردة :

كل شيء سيكون تحت السيطرة.

تلك الجملة وحدها كانت كافية لتزرع الخوف في قلب أي إنسان.
لأن أكثر الجمل رعباً في السياسة هي :
كل شيء تحت السيطرة،

>

ولقد أوشك الكابتن شون فعلاً على الإفلات. لم يكن يفصله عن الخروج من المجال الجوي السوفييتي سوى دقيقتين فقط. دقيقتان لا أكثر. بعدهما سيدخل المجال الياباني، وتصبح المطاردة السوفييتية عديمة الجدوى. لكن التاريخ أحياناً لا يحتاج إلا إلى دقيقة واحدة ليغير مصير العالم.

في القاعدة الجوية السوفييتية، كان الطيار المقاتل ينتظر الأمر الأخير. يدها ترتجفان داخل القفازين، لا خوفاً من المعركة، بل خوفاً من الخطأ.

قال عبر جهاز الاتصال :

أرى الهدف.

جاءه الصوت بارداً كالجليد :

نقذ.

في تلك اللحظة ، شعر الطيار أن قلبه أصبح حجراً. تردد ثانيةً واحدة. ثم ضغط الزر.

اندفع الصاروخ عبر الظلام مثل نيزكٍ مجنون، يشق الليل بصغيرٍ يشبه صرخة شيطان. وبعد لحظات، انفجرت السماء. لم يكن الانفجار ضخماً كما تصوّره الأفلام، بل كان حزيناً على نحوٍ لا يُحتمل. وميضٌ أحمر، ارتجافة، ثم بدأت الطائرة تهوي ببطء، كطائرٍ أصيب في جناحه الأخير.

داخل المقصورة، ارتفعت صرخات الركاب فجأةً، ثم اختلطت بالدخان والعتمة.

امرأة ضمت طفلها إلى صدرها وهي تبكي. رجلٌ أخذ يتمتم بصلاةٍ سريعة. ومضيئةٌ شابة حاولت أن تتنسم للركاب بينما كانت عيناها تمتلئان بالرعب. أما الكابتن شون، فقد ظلّ ممسكاً بالمقود حتى اللحظة الأخيرة.

كان يعرف أن النهاية جاءت. لكنه، في أعماقه، لم يكن يفكر بالموت وحده. كان يفكر بالخديعة.

هل استُخدم؟ هل كان مجرد طُعْم في لعبة استخباراتية قذرة؟

في آخر لحظاته، تذكر العبارة الأمريكية الباردة:

كل شيء سيكون تحت السيطرة،

فضحك ضحكة قصيرة، مرة، تشبه بكاء رجلٍ أدرك الحقيقة متأخرًا.

>

حين وصلتني التسجيلات، شعرت أنني لا أحمل شريط فيديو، بل أحمل قنبلة سياسية. كان عليّ أن أذهب فورًا إلى رئيس الوزراء السيد ناكاسوني.

الشوارع اليابانية وقتها كانت هادئة على نحوٍ غريب، لكن خلف النوافذ المضيئة كانت البلاد كلها تستعدّ لعاصفةٍ دوليةٍ لم تعرف مثلها منذ الحرب العالمية الثانية.

في الثامنة تمامًا، سلّمت التسجيلات إلى السيد جوتودا، مدير مكتب رئيس الوزراء. كان رجلًا صارم الملامح، لا يتحرك كثيرًا أثناء الحديث، لكن عينيه كانتا تقولان كل شيء.

سألني:

هل أنت واثق مما في هذه الأشرطة؟

أجبت:

لو كنت غير واثق، لما جئت بها.

أخذ الشريط ببطء، وكأنه يحمل مادة مشعة.

بعد ساعتين فقط، كان رئيس الوزراء نفسه يشاهد التسجيلات، يعيد المقاطع مرةً بعد أخرى، ويقف أحيانًا أمام الشاشة الطويلة دون أن يتكلم. كان يدرك أن ما يراه لن يبقى سرًا طويلًا.

وفي الساعة الثامنة وعشرين دقيقة مساءً، خرج وزير الخارجية الياباني السيد شينتارو إلى المؤتمر الصحفي.

وقف أمام الصحفيين بوجه متجههم، ثم قال الجملة التي ستدوي في العالم كله:

الطائرة الكورية أسقطت بصاروخٍ سوفيتي.
في اللحظة نفسها تقريباً، التقط وزير الخارجية الأمريكي جورج شولز الخيط، وكأنه كان ينتظر تلك العبارة منذ البداية.
ظهر أمام الكاميرات صارخاً بغضبٍ مسرحي :
هذا تصرف يتسم بالوحشية، إننا نطالب المجتمع الدولي بإدانة هذا العمل اللاإنساني.
ورددت الإذاعات صوته في كل مكان، حتى بدا وكأن العالم كله يستيقظ على طول حربٍ جديدة.
لكن الاتحاد السوفيتي التزم الصمت. صمتاً ثقیلاً، مخيفاً، ومليئاً بالأسرار. كان الصمت أحياناً أقوى من الاعتراف.

>

وفي هيئة الأمم المتحدة، تحوّلت القضية إلى معركة كلمات.
الأمريكيون يتحدثون عن الجريمة. والسوفييت يرفضون الاتهامات. والعالم يقف بين الطرفين مثل رجلٍ يشاهد حريقاً يقترب من منزله.

غير أن سؤالاً ظلّ معلقاً في الهواء، كدخانٍ لا يتبدد :
إذا كانت الولايات المتحدة تملك أدلةً حاسمة، فلماذا لم تكشفها كاملة ؟ لماذا اكتفى جورج شولز بالغضب والخطابات ؟ أكان يخشى انكشاف أمر طائرة التجسس الأمريكية ؟ أم أنه، ببساطة، لم يكن يملك الدليل القاطع الذي يُدين موسكو دون أن يدين واشنطن معها ؟
ذلك السؤال ظلّ يطاردني أكثر من الحادث نفسه.

لأن السياسة لا تخفي الحقيقة فقط، بل تُعيد تشكيلها.
ربما كانت الطائرة الكورية ضحية خطأٍ مروّع. وربما كانت ضحية خطةٍ استخباراتية خرجت عن السيطرة. وربما، وهذا هو الاحتمال الأكثر رعباً، أن الجميع كانوا يعرفون أكثر مما قالوا.
الجميع، وصمتوا.

>

في بعض الليالي، ما زلت أسمع في ذاكرتي صوت البحر الياباني تحت الطائرة المحترقة . وأتخيل الركاب وهم ينظرون من النوافذ إلى الظلام الأخير. أتخيل الكابتن شون وهو يحاول حتى اللحظة الأخيرة أن ينتزع الطائرة من الموت. وأتخيل الضابط السوفييتي الذي ضغط زر الإطلاق ثم عاد إلى بيته صامتاً، غير قادرٍ على النظر في عيني ابنه.

الحروب الباردة لا تقتل بالرصاص فقط. إنها تقتل بالشك. والشك، حين يسكن الدول، يحول البشر إلى أهدافٍ محتملة.

لقد انتهت تلك الليلة منذ زمن، لكن الأسئلة لم تنتهِ. لأن الحقيقة، في عالم المخابرات، لا تموت، بل تُدفن حية.

وربما لهذا السبب بقيت الطائرة الكورية تحلق في ذاكرة العالم حتى اليوم؛ لا باعتبارها مجرد طائرةٍ سقطت، بل باعتبارها رمزاً لزمنٍ كان الإنسان فيه أصغر من صاروخ، وأضعف من قرارٍ يُتخذ خلف بابٍ مغلق.

زمنٍ كانت فيه السماء نفسها ساحةً خوف. وكان البحر يحتفظ بأسراره إلى الأبد.

الشريطان اللذان أخرجنا العالم

حكاية الظلال التي دارت خلف أبواب المخابرات اليابانية

كان الليل يهبط على طوكيو ببطءٍ يشبه هبوط ستارةٍ سوداء على مسرحٍ امتلأ بالهمس والقلق.

المطر الخفيف يطرق زجاج النوافذ في مبنى المخابرات اليابانية كما لو أنه أصابع شبحٍ يبحث عن اعترافٍ متأخر، فيما كانت المدينة خارج الجدران تبدو هادئةً إلى حدٍ يثير الريبة. وحدها الغرف المغلقة في الطابق السفلي كانت تعرف أن العالم يقف على حافة هاوية سياسية جديدة، وأن شريطين صغيرين من الفيديو قادران على أن يشعلا حرباً باردة أخرى، أو يطفئنا ناراً كامنة منذ أعوام.

في تلك الليلة، جلس المسؤول الياباني العجوز أمام مكتبه الخشبي الداكن ، يتأمل لفافة دخان تتصاعد من سيجارته ببطء. كان اسمه ، تاكاهيرو ماتسودا ، رجلاً تجاوز الستين بقليل، لكن السنوات التي قضاه بين الملفات السرية والوجوه الكاذبة جعلت ملامحه تبدو أقدم من عمره الحقيقي. عيناه الضيقتان كانتا تحملان ذلك التعب الصامت الذي يصيب الرجال الذين عرفوا أكثر مما ينبغي.

فتح الملف الأحمر أمامه للمرة العاشرة ، ثم أعاد النظر إلى الشريطين الموضوعين داخله بعناية .شريطان فقط. قطعتان صغيرتان من

البلاستيك الأسود، لكنهما كانا أثقل من الرصاص ، وأكثر خطراً من المدافع.

تنهد بعمق وقال بصوت خافت كأنه يحدث نفسه :

،أحياناً لا تتغير الحروب الجنود، بل تتغيرها التسجيلات،

في الخارج ، كان الحراس يتحركون بصمت ، بينما انعقد في الداخل اجتماعٌ سري لم يُسجل في أي وثيقة رسمية.

اجتمع كبار المسؤولين حول الطاولة الطويلة، وجوه جامدة، وربطات عنق مشدودة كأنها حبال مشانق صغيرة.

كل واحد منهم كان يعرف أن القرار الذي سيتخذ الليلة قد يغير علاقة اليابان بالقوتين الأعظم في العالم.

قال أحدهم بنبرة عملية جافة :

الأمريكيون يطالبون بالحصول على الشريط فوراً.

ساد الصمت للحظة، ثم تحرك ،سوارتيو، في مقعده ببطء.

كان مختلفاً عن بقية الحاضرين. رجل نحيل ، حاد النظرات ، يحمل في صوته شيئاً من المرارة القديمة. لم يكن يؤمن كثيراً بالشعارات السياسية ، وكان يرى أن أجهزة المخابرات حين تتحدث عن الإنسانية فإنها غالباً تخفي صفقة قدره خلف الكلمات.

أشعل سيجارته ، ثم قال بهدوء:

وإذا أعطيناهم الشريطين، فماذا نكون قد فعلنا ؟

رد مسؤول آخر بسرعة :

نكون قد ساعدنا حليفنا الأكبر.

ابتسم سوارتيو ابتسامة باردة.

لا، نكون قد دخلنا حرباً ليست حربنا.

ثم التفت إلى الجميع وقال بصوت أعمق :

إننا بتسليم هذين الشريطين نصبح طرفاً مباشراً في نزاع لا شأن لنا به إلا من الناحية الإنسانية. والواضح أن الرئيس الأمريكي يريد

استغلال الحادث دون أن يعرّض أسرار مخابراته للعلن أمام المحافل الدولية.

كان كلامه يسقط فوق الطاولة كحجارة ثقيلة.
بعض الحاضرين أشاحوا بوجوههم، وآخرون تبادلوا نظرات قلقة.

أما، ماتسودا، فظل صامتاً.

كان داخله منقسماً بطريقة مؤلمة. جزء منه يرى أن اليابان لا تستطيع رفض طلب أمريكي بهذه الحساسية، وجزء آخر كان يشعر بأنهم يُستخدمون كستار سياسي في لعبة أكبر منهم جميعاً.

رفع رأسه أخيراً وقال :

نحن أصبحنا طرفاً في القضية رغم أنوفنا يا صديقي.

نظر إليه سوارتيو طويلاً.

تابع ماتسودا :

صرنا طرفاً منذ اللحظة التي أعلننا فيها في المؤتمر الصحفي أن الطائرة السوفيتية هي التي أسقطت الطائرة الكورية. لا يمكننا الآن أن نقول للعالم إننا كنا نتحدث بلا أدلة.

اقترب بيده من الملف الأحمر.

هذان الشريطان هما الدليل.

ساد صمت جديد، لكنه هذه المرة كان أكثر توتراً.

في أعماق ماتسودا، كانت معركة أخرى تدور بصمت. لقد أمضى حياته كلها مؤمناً بأن الحقيقة في عالم المخابرات ليست قيمة أخلاقية، بل أداة سياسية. ومع ذلك، كان يشعر الليلة بشيء مختلف. كان يخاف. ليس من السوفييت. ولا من الأمريكيين.

بل من تلك اللحظة التي تتحول فيها الدول إلى ممثلين فوق مسرح دموي، بينما تُدفن الحقيقة تحت التصفيق السياسي.

قال سوارتيو فجأة :

يا صديقي، نحن تابعنا الحادث على شاشات الرادار لأكثر من خمس عشرة دقيقة فقط. أما الأمريكيون فقد تابعوه لساعتين كاملتين من محطاتهم.

ثم انحنى قليلاً للأمام ، وكأن كلماته القادمة أسرار محرمة. لديهم تسجيلاتهم الخاصة، تسجيلات مأخوذة من محطة ،ميساوا، التابعة لوكالة الأمن القومي الأمريكي. إذا كانوا يملكون كل ذلك، فلماذا يصّر جورج شولتز على استخدام شريطنا نحن ؟ ارتجف شيء خفي داخل الغرفة. كان السؤال بسيطاً، لكنه مرعب.

رفع أحد الضباط حاجبيه وقال :

ماذا تقصد ؟

ابتسم سوارتيو بمرارة.

أقصد أن الرجل الذي يملك الحقيقة كاملة لا يطلب نصف الحقيقة إلا إذا كانت الحقيقة الكاملة لا تخدمه.

تجمدت الوجوه. أما ماتسودا فشعر بوخزة باردة تسري في صدره.

كان يعرف الأمريكيين جيداً. يعرف أنهم لا يطلبون شيئاً بلا سبب. ويعرف أكثر أن الدول الكبرى لا تبحث عن العدالة، بل عن الرواية التي تمنحها القوة.

تسللت إلى ذاكرته صورة قديمة من شبابه ، يوم كان ضابطاً صغيراً بعد الحرب العالمية الثانية. تذكر طوكيو المحترقة، الأطفال الذين يبحثون عن الطعام بين الأنقاض، والجنود الأمريكيين الذين دخلوا البلاد بابتسامات المنتصرين.

منذ ذلك الوقت ، أدرك أن العالم لا يحكمه الشرف، بل القدرة على كتابة القصة الأخيرة.

قال أحد الحاضرين بتوتر :

ربما يريد الأمريكيون تفادي كشف قدراتهم الاستخباراتية.

ضحك سوارتيو بخفوت.

المخابرات لا تخجل من قوتها، لكنها تخجل أحياناً من الحقيقة التي تكشفها تلك القوة.

ثم أطفأ سيجارته بعنف.

ربما التقطت تسجيلاتهم ما لا يريدون للعالم أن يراه.

كان المطر يشتد في الخارج.

وفي مكان بعيد من المدينة ، كانت الأضواء الحمراء والزرقاء تنعكس على الشوارع المبتلة، فيما ظل الاجتماع مستمراً كأنه محاكمة سرية للتاريخ نفسه.

داخل عقل ماتسودا، بدأت الأسئلة تتكاثر بصورة مؤلمة :

هل الأمريكيون صادقون فعلاً ؟ هل كان إسقاط الطائرة مجرد خطأ عسكري ؟ أم أن وراء الحادث ما هو أعمق من روايات السياسة والإعلام ؟

كان يشعر بأن الحقيقة تشبه ضباب البحر؛ كلما اقترب منها ابتعدت أكثر.

وقف أخيراً واتجه نحو النافذة. تأمل المدينة بصمت طويل ، ثم

قال :

نحن لا نحمل شريطين فقط، نحن نحمل ذاكرة موتى.

التفت الجميع إليه.

أكمل بصوت خافت:

المشكلة ليست في تسليم الأدلة، بل في الطريقة التي سئستخدم

بها.

لم يرد أحد. كان كل رجل في تلك الغرفة يعرف أن الأدلة في عالم السياسة تشبه السكاكين؛ لا قيمة لها إلا بيد من يستعملها.

عاد ماتسودا إلى مقعده، ثم فتح الملف مجدداً. أخرج أحد

الشريطين وتأمل طويلاً.

كم يبدو العالم هشاً أحياناً. إمبراطورية كاملة قد تهتز بسبب

تسجيل صامت.

شعر فجأة بإرهاق نفسي عميق. لقد أمضى عمره وهو يعتقد أن العمل الاستخباراتي يقوم على السيطرة والانضباط، لكنه اكتشف مع السنوات أن أكثر ما يحكم هذا العالم هو الخوف. خوف الدول من بعضها. وخوف السياسيين من الحقيقة. وخوف الرجال من الاعتراف بأنهم مجرد أدوات داخل آلة هائلة.

قال سوارتيو بصوت هادئ هذه المرة :

هل تعرف ما يخيفني حقاً ؟

نظر إليه ماتسودا.

أن تتحول دماء الضحايا إلى مادة دعائية.

ثم أضاف :

حين تموت الإنسانية داخل السياسة ، تصبح الكارثة مجرد مؤتمر

صحفي.

ارتعشت يد أحد الضباط وهو يعدل نظارته. أما ماتسودا فقد شعر بأن كلمات زميله أصابت شيئاً دفيناً في داخله. كان يعرف أن العالم الخارجي ينتظر رواية جاهزة :

السوفييت أشرار، والأمريكيون حماة الحرية، واليابان شاهد

محايد.

لكن الحقيقة لم تكن بهذه البساطة. الحقيقة كانت متاهة من المصالح والخوف والأكاذيب الناعمة.

فجأة دخل أحد المساعدين مسرعاً، ثم انحنى قائلاً :

سيدي، السفارة الأمريكية تطلب جواباً الليلة.

ساد الصمت من جديد.

نظر ماتسودا إلى الوجوه حوله. كل وجه كان يخفي حساباته الخاصة. بعضهم خائف من غضب واشنطن ، وبعضهم خائف من استفزاز موسكو، وآخرون لا يفكرون إلا في مستقبلهم المهني.

أما هو، فكان يفكر في شيء آخر تماماً. كان يفكر في الإنسان الذي جلس ذات يوم داخل تلك الطائرة الكورية، مطمئناً إلى رحلته العابرة للسماء، دون أن يدرك أنه صار فجأة جزءاً من صراع العمالقة.

ما أقسى السياسة حين تمر فوق البشر كالدبابات.

أغمض عينيهِ قليلاً. ثم قال ببطء :

سنسلم الشريطين.

رفع سوارتيو رأسه نحوه في صمت.

أكمل ماتسودا:

لكننا سنحتفظ بنسخ كاملة لدينا.

اقترب سوارتيو منه بعينيهِ الحادثين.

لأنك لا تثق بالأمريكيين ؟

أجاب بعد لحظة طويلة :

لأنني لا أثق بأحد حين يتعلق الأمر بالحقيقة.

انتهى الاجتماع بعد منتصف الليل. خرج الرجال واحداً تلو الآخر، بينما بقي ماتسودا وحيداً داخل الغرفة.

جلس بصمت ، وأخذ يتأمل انعكاس صورته على زجاج النافذة. بدا له وجهه شاحباً ومتعباً، كوجه رجلٍ عاش طويلاً بين الأسرار حتى فقد القدرة على التمييز بين الحقيقة والوهم.

همس لنفسه :

في عالم المخابرات، لا أحد يبحث عن الحقيقة كاملة. كل دولة تبحث فقط عن الجزء الذي ينقذ صورتها،

ثم أطفأ المصباح الأخير.

وبقيت الغرفة غارقة في الظلام ، إلا من ضوء المطر المرتجف على الزجاج، كأن السماء نفسها كانت تبكي بصمت على عالم صار فيه الموت خبيراً سياسياً، وصارت الحقيقة شريط فيديو يبحث الجميع عن طريقة مناسبة لاستغلاله.

الشيطان اللذان أشعلا الظلام

لم يكن الليل قد انقضى تمامًا فوق طوكيو حين وصلت الحقيبتان الرماديتان إلى المبنى الحجري الصامت التابع لجهاز المخابرات اليابانية. كان المطر الخفيف ينقر زجاج النوافذ كأصابع مترددة تخشى أن تطرق باب الحقيقة، فيما انحنى الرجال بوجوه شاحبة فوق الطاولة الطويلة التي توسطت القاعة المعتمة.

هناك ، استقر الشيطان ، شريطان صغيران، بالكاد يتسع كل منهما في راحة اليد ، لكنهما كانا أثقل من جبل. أثقل من الحدود، وأشد فتكًا من الصواريخ التي تمزق السماء.

ولأسباب ظلت غامضة حتى على أولئك الذين صنعوا القرار ذاته، تقرر تسليم الشريطين إلى رجال المخابرات الأمريكية.

ساد الصمت للحظات طويلة. صمت يشبه ذلك الفراغ الذي يسبق الانفجار.

ثم دفع أحد الموظفين ورقة رسمية نحو الضابط الأمريكي الجالس قبالة الطاولة، وقال بصوت يختلط فيه الحذر بالمرارة :

نريد تعهدًا مكتوبًا، واضحًا و صريحًا .

رفع الأمريكي عينيه بهدوء بارد، بينما كان دخان سيجارته يصعد ملتويًا كأفعى رمادية في فضاء الغرفة.

قرأ بصوت منخفض:

من البديهي أن الحكومة الأمريكية لن تفشي أسرار هذين الشريطين ، ولن تديع ما عليهما من أحاديث متبادلة بين المحطة الأرضية السوفيتية في سخالين والطائرتين الماردتين بشأن إسقاط الطائرة الكورية . ثم وقع.

لحظة قصيرة فقط ، لكنها كانت كافية لتشعر القاعة كلها بأن شيئًا ما قد انكسر في الخفاء.

كان ،سوارتيو ، واقفًا قرب النافذة منذ البداية ، صامتًا كتمثال حجري نُحت من القلق. رجل نحيل، حاد النظرات، يحمل فوق كتفيه تاريخًا طويلًا من الشك في الحلفاء قبل الخصوم.

راقب التوقيع، ثم أغمض عينيه ببطء. في داخله كان شيء ثقيل يتحرك. لم يكن يثق بالأمريكيين. لم يكن يثق بأحد.

ومنذ سنوات، تعلم أن الدول لا تملك ضميرًا، بل مصالح فقط، وأن الكلمات الرسمية قد تكون أحيانًا مجرد أكفان أنيقة للحقيقة.

قال فجأة، بصوت خافت لكنه نافذ :

لا تسلموهما.

التفت الجميع إليه.

تابع ببطء :

حين تدخل الأسرار إلى دهاليز السياسة ، لا تعود أسرارًا.

ساد التوتر.

اقترب أحد المسؤولين اليابانيين منه وقال بنبرة حاول أن يجعلها

هادئة:

نحن في ظرف دولي بالغ الحساسية، والولايات المتحدة حليفنا

الأكبر.

ابتسم سوارتيو ابتسامة باردة.

الحليف الذي يحتاج الحقيقة، لا يطلب دفنها.

لكن القرار كان قد اتخذ بالفعل.

خرج الأمريكيون بالشريطين، بينما بقي سوارتيو واقفاً يحدق في الباب المغلق كأنما يرى من خلاله كارثة قادمة.

>

خمسة أيام فقط. خمسة أيام كانت كافية ليتحول الوعد المكتوب إلى رماد.

في قاعة الأمم المتحدة بنيويورك ، ارتفعت الأضواء البيضاء فوق الوجوه المتحفزة، وازدحمت المقاعد بالصحفيين والدبلوماسيين والعيون المتوترة.

وقفت السيدة ،جين كيرك باتريك، بثقة المنتصرين.

امرأة تعرف كيف تحرك الكلمات كما يحرك الجنرال جنوده في أرض المعركة. رفعت الشريطين عاليًا أمام الجميع.

وفي تلك اللحظة شعر بعض الحاضرين أن العالم لم يعد قاعة دبلوماسية ، بل مسرحًا ضخماً تُعرض فوّه مأساة بشرية مخضبة بالخداع.

قالت بصوت حاد اخترق القاعة :

في هذين الشريطين أحاديث متبادلة بين الطائرتين السوفييتيتين المطاردتين والمحطة الأرضية في سخالين ، ولا يستطيع من يسمع تلك الأحاديث إلا أن يقتنع ، بلا أدنى شك ، بمسؤولية الحكومة السوفييتية عن الحادث.

ثم أضافت ، وهي تلوح بالشريطين :

إنني أقدم هذين الشريطين إلى السيد رئيس الجمعية العامة ، لعرضهما إذا شاء على الأعضاء المحترمين ، وسيوضح للجميع أن الطائرة الكورية أسقطت حتى دون إنذار مسبق.

في تلك اللحظة تحديداً ، كان سوارتيو في طوكيو يتابع البث التلفزيوني. تجمدت يدها. وشعر كأن أحدهم غرس سكيناً بطيبة في صدره. اقترب من الشاشة حتى كادت نظارته تلامس الضوء المرتعش.

همس :
لقد فعلوها،
ثم انفجر غضبه فجأة.
ضرب الطاولة بقبضته حتى ارتجفت الأكواب.
لقد حذرتكم من هذا !
كان صوته مليئاً بذلك الغضب الذي يولد حين تتحقق أسوأ
المخاوف.

دخل أحد مساعديه مذعوراً. قال:

سيدي،

قاطع سوارتيو بعنف :

قلت لكم إنهم سيستخدمون الشريطين كسلاح سياسي ! قلت لكم
إن الحقيقة ليست ما يبحثون عنه !

راح يتمشى في الغرفة بعصبية. كان يشعر بأن العالم كله يتحرك
داخل شبكة هائلة من الأكاذيب المتقاطعة، وأن البشر العاديين ليسوا سوى
ظلال تُسحق تحت أقدام الدول الكبرى.

توقفت خطواته فجأة. نظر نحو النافذة.

كان الليل فوق طوكيو كثيفاً، والمدينة تلمع تحت المطر مثل جسد
معدني بارد. وفي أعماقه بدأ الشك يتحول إلى يقين مرعب.

قال ببطء :

إنهم لا يريدون كشف الحقيقة، بل يريدون صناعة حقيقة جديدة.

ساد الصمت.

ثم تابع بصوت أكثر انخفاضاً :

لو عرف العالم أن طائرة تجسس أمريكية كانت تختبئ خلف
الطائرة الكورية، فسيتغير كل شيء.

تبادل الحاضرون النظرات المرتبكة.

أحدهم سأل بصوت متردد :

أعتقد حقًا أن الكابتن شون كان متواطئًا ؟

أغمض سوارتيو عينيه للحظة.

في داخله كانت الصور تتلاحق ككوايبس منكسرة :

الطائرة الكورية الضخمة تشق الظلام ، الطائرة الأمريكية تندس خلفها كذئب يختبئ في ظل فريسته ، والرادارات السوفيتية المرتبكة تبحث وسط السماء عن هدف لا يظهر بوضوح.

قال أخيرًا :

في الحروب السرية ، لا أحد بريء بالكامل.

ثم جلس ببطء على كرسيه. وفجأة بدا متعبًا، متعبًا على نحو عميق. لم يكن يخشى الروس وحدهم، بل كان يخشى الحقيقة ذاتها. لأن الحقيقة حين تظهر متأخرة، لا تنفذ أحدًا.

>

في واشنطن ، كان المتحدث الرسمي الأمريكي ، لاري سبيكس، يكرر التصريحات نفسها أمام الصحافة. الكلمات ذاتها. النبرة ذاتها. اتهامات صارمة للسوفييت.

أما خلف الستائر الثقيلة ، فكان رجال السياسة يعيدون ترتيب الرواية بعناية ، كمن يكتب فصلًا جديدًا من التاريخ قبل أن يجف دم الضحايا.

وفي موسكو، كانت القيادة السوفيتية تغلي غضبًا. الكرملين بدا كقلعة محاصرة بالصمت. أصوات الجنرالات ارتفعت في القاعات المغلقة ، والاتهامات تتطاير كشرارات فوق برميل بارود.

قال أحد القادة العسكريين:

الأمريكيون يحاولون إذلالنا أمام العالم.

رد آخر بعصبية :

بل يريدون دفعنا إلى الزاوية ، كي نرتكب خطأ أكبر.

لكن خلف الغضب كله ، كان الخوف حاضرًا ، خوف من أن تتحول الحادثة إلى شرارة تشعل مواجهة لا يستطيع أحد إيقافها.

>

في تلك الليلة، لم ينم سوارتيو. جلس وحده في مكتبه الصغير.
مصباح أصفر وحيد كان يسكب ضوءًا شاحبًا فوق الأوراق المبعثرة.
راح يقرأ نسخة من التعهد الأمريكي مرارًا. كلما قرأ السطور شعر
بسخرية سوداء تخنقه.

،لن تفشي أسرار هذين الشريطين،

ضحك فجأة. ضحكة قصيرة متعبة.

ثم همس لنفسه :

الكلمات لا تكذب ، البشر هم من يفعلون.

استند برأسه إلى المقعد وأغمض عينيه. تذكر أباه القديم، الضابط
الياباني الذي نجا من الحرب العالمية الثانية بصعوبة.

كان يقول له دائمًا :

حين تجلس الدول الكبرى إلى طاولة واحدة ، يكون الإنسان
العادي هو الطبق الرئيسي.

يومها لم يفهم العبارة. أما الآن، فقد فهمها تمامًا.

كانت الطائرة الكورية مجرد ضحية وسط لعبة عملاقة. وكان
الركاب الأبرياء مجرد أرقام في تقارير سرية.

وفجأة شعر باختناق هائل.

اقترب من النافذة وفتحها بعنف. اندفع الهواء البارد إلى الغرفة.
نظر إلى المدينة الغارقة في الأضواء وقال بصوت مبجوح :

كم من الأكاذيب تحتاجها الإمبراطوريات كي تبقى قوية ؟

ثم عاد إلى مكتبه بسرعة ، ومد يده نحو الهاتف.

رفع السماعة وقال بحزم :

أريد موعدًا عاجلاً مع السيد تاكاسوني ، حالاً.

صمت قليلاً، ثم تابع :

يجب أن نسترد الشريطين من الأمريكيين.

سأله الصوت في الطرف الآخر بدهشة :

هل الأمر بهذه الخطورة ؟

أجاب سوارتيو ببطء، كمن ينطق حكماً أخيراً:
أخطر مما تتصورون، لأن الحقيقة إن ماتت هذه الليلة ، فقد لا
تعود أبداً.
أغلق الهاتف. ثم بقي جالساً وحده.
خارج النافذة كانت طوكيو تواصل حياتها كأن شيئاً لم يحدث.
السيارات تتحرك. الأضواء تلمع. الناس يضحكون في الحانات.
والعالم كله يمضي نحو الغد.
لكن سوارتيو كان يشعر أن البشرية تقف فوق جليد رقيق جداً،
وأن خطوة واحدة خاطئة قد تدفع الجميع إلى هاوية لا قرار لها.
وفي مكان بعيد، فوق مياه سخالين الباردة، كانت أسرار تلك الليلة
لا تزال تحوم في السماء، كأشباح لم تجد بعد من يصغي إلى اعترافاتها
الأخيرة.

حين ارتجفت القاعة الزرقاء

لم يكن الصمت في قاعة الأمم المتحدة صمناً عادياً؛ كان صمناً يشبه الوقوف على حافة هاوية، حيث تتدلى الحقيقة بين إصبعين مرتجفين، وحيث يمكن لجملة واحدة أن تدفع العالم كله إلى الجنون.

في ذلك المساء الثقيل ، كانت نيويورك تغرق في مطر خفيف ينساب على زجاج النوافذ العالية كأنه دموع مدينة أرهقها الخوف. أما داخل القاعة الكبرى، فقد بدت الوجوه متحجرة، والعيون شاخصة نحو المنصة حيث وقفت السيدة جين كيركاتريك، مندوبة الولايات المتحدة، بثوبها الداكن ونظرتها الحادة التي تشبه نصلاً بارداً يلعب تحت الضوء.

كانت تعرف ، وهي ترفع الشريطين أمام عدسات التلفاز وميكروفونات الإذاعات العالمية ، أن العالم كله يتابعها. ملايين البشر كانوا ينتظرون كلمة، إشارة، دليلاً يطمئنهم إلى أن هذا العصر المجنون لم يفقد عقله تماماً.

لكنها، في تلك اللحظة، لم تكن تفكر في العالم. كانت تفكر في الانتصار.

قالت بصوت بطيء، متزن، لكنه يحمل في أعماقه ناراً خفية :

هل لديكم الآن أي شك، في أن الاتحاد السوفييتي أسقط عمداً ،
ومع سبق الإصرار ، طائرة مدنية بريئة ؟ هل لديكم شك في أنهم قتلوا
متنين وتسعة وستين إنساناً ، ثم التزموا الصمت وكأن شيئاً لم يحدث ؟
ساد الوجوم. حتى المترجمون داخل مقصوراتهم الزجاجية
تباطأت أنفاسهم وهم ينقلون الكلمات إلى لغات الأرض كلها.
وأكملت :

لم يصدر بيان. لم يصدر اعتذار. لم تصدر حتى محاولة تفسير.
فقط صمت، صمت بارد، ثقيل، يشبه الثلج الذي يغطي سيبيريا.
في الصفوف الخلفية ، كان الصحفيون يكتبون بعصبية مفرطة ، بينما
كانت الكاميرات تقترب من وجه المندوب السوفييتي الذي جلس جامداً ،
لا يرمش إلا نادراً بارد الأعصاب ، ينظر بنظرات ثابتة ، و كأن ما يقال
ليس من شأنه .

لكن خلف ذلك الجمود، كانت عاصفة كاملة تدور داخله. كان
الرجل يشعر أن بلاده تُدفع إلى قفص الاتهام أمام العالم كله. شعر أن
القاعة تضيق حوله ، وأن كل عين تنتظر إليه كأنها فوهة بندقية.
ومع ذلك، ظل ساكناً. ذلك الصمت نفسه صار مادة للاتهام.

خلال الأيام التالية ، انتشر الغضب في الغرب كالنار في الحقل
اليابسة. منعت كندا الطائرات السوفييتية من عبور أجوائها. أغلقت
بريطانيا بعض مسارات الطيران. وبدأت شركات السفر الأوروبية
تتجنب بيع تذاكر الخطوط السوفييتية، وكان الطائرات القادمة من موسكو
تحمل الموت في أجنحتها.

في المقاهي ، في نشرات الأخبار ، في الجامعات ، وحتى في
البيوت الصغيرة البعيدة عن السياسة ، كان الناس يتحدثون عن الطائرة
الكورية التي سقطت في الظلام ، سقطت في أعماق المحيط ، بفضل
صاروخ سوفييتي . .

الأمهات كنّ يبكين ركاباً لا يعرفن أسماءهم. والساسة كانوا
يلمعون سكاكينهم خلف الستائر.

أما في موسكو، فقد كانت الاجتماعات تعقد حتى الفجر. وجوه
شاحبة، سجاجير تحترق ببطء، وأكواب شاي باردة تُترك فوق الطاولات
دون أن يشربها أحد.

كان السؤال الذي يطارد الجميع واحداً :

هل تكشف الحقيقة ؟

لكن الحقيقة ، في زمن الحرب الباردة، لم تكن شيئاً بسيطاً. كانت متاهة.

وكان داخل تلك المتاهة شريط فيديو أمريكي حصل عليه السوفييت بطريقة غامضة ؛ شريط يكشف ما لم يكن ينبغي للعالم أن يراه.

في ليلة متأخرة، جلس المندوب السوفييتي وحده داخل مكتبه في مقر الأمم المتحدة. جلس ، و هو يحتسي القهوة ليبدأ في تنفيذ الاتهام الأمريكي .

أطفأ المصباح الرئيسي، وترك ضوءاً أصفر خافتاً يغمر الغرفة. ثم أعاد تشغيل الشريط للمرة العاشرة.

ظهرت النقاط المضيئة فوق شاشة الرادار. طائرة كورية مدنية. وخلفها، ظل آخر. طائرة تجسس أمريكية من طراز RC-135.

ظل الرجل يحدق في الشاشة طويلاً.

كان يعرف أن عرض هذا الشريط قد يغير كل شيء.

لكنه كان يعرف أيضاً أن الحقيقة ، حين تخرج متأخرة ، تبدو دائماً كالكذب.

تنهد ببطء، ثم همس لنفسه :

لقد سبقونا، سبقونا إلى رواية القصة.

وفي اليوم التالي، تبدلت الصورة.

فجأة، قطعت قنوات الكتلة الشرقية جميعها برامجها المعتادة ، وظهر الشريط الأمريكي على شاشات التلفاز. جلس الملايين في أوروبا الشرقية يشاهدون الخطوط المضيئة تتحرك فوق الخرائط الإلكترونية ، بينما كان المذيعون يتحدثون بنبرة متوترة عن ، الاستفزاز الأمريكي،.

وفي الأمم المتحدة، وقف المندوب السوفييتي أخيراً. كان صوته هذه المرة أكثر حدة، كأن الصمت الطويل تراكم داخله حتى تحول إلى بركان من الغضب .

رفع الشريط عاليًا وقال :

هل ما زال العالم يحتاج إلى دليل آخر ؟ أليست الولايات المتحدة هي المسؤولة الحقيقية عن مقتل ركاب الطائرة الكورية ؟

تحركت الهمسات داخل القاعة.

وتابع :

لقد استخدمت أمريكا الطائرة المدنية ستارًا لطائرة تجسس عسكرية. لقد دفعتهما عمدًا نحو سخالين لتختبئ خلفها طائرة الـ RC-135. ثم أشار نحو الشاشة الكبيرة خلفه.

أنتم ترون بأعينكم ما رآه الناس في أوروبا كلها. وجود طائرة التجسس يفسر انحراف الطائرة الكورية. ويفسر أيضًا لماذا صممت المحطات الأرضية الأمريكية واليابانية، ولم تنبه قائد الطائرة إلى خروجه عن المسار.

في تلك اللحظة، كانت جين كيرك باتريك تراقبه بعينين ضيقتين. كانت تعرف قيمة الأداء المسرحي في السياسة. لكنها كانت تعرف شيئًا آخر أيضًا :

في الحرب الباردة، لا أحد بريء.

وقفت فجأة ، بعصبية واضحة، حتى إن الأوراق أمامها اهتزت.

قالت بصوت مرتفع :

ما هذا الهراء الذي أسمعته ؟

ثم أشارت بيدها نحو الشريط.

هذا التسجيل مزيف. الولايات المتحدة ترفض تمامًا الادعاء بأنه صادر من محطة الرادار الأمريكية في ميساوا.

توقفت لحظة، ثم أضافت بنبرة أكثر هدوءًا :

أما انحراف الطائرة الكورية، فليس أمرًا استثنائيًا. تلك المنطقة معروفة بالضباب الكثيف والعواصف الجوية. في يوم الحادث، كانت كامتشاتكا وسخالين غارقتين في الضباب، ومن الطبيعي أن يفشل الطيار في التقاط بعض الإشارات الأرضية.

لكن المندوب السوفيتي انفجر غضبًا :

عن أي إشارات تتحدثين ؟

ارتفع صوته حتى ارتدت أصدائه في القاعة.

نحن نؤكد أن المحطات الأمريكية واليابانية لم تصدر أي تحذير للطائرة. ليس بسبب الضباب ، بل لأن قائد الطائرة أغلق أجهزة الاستقبال والإرسال بعد دخوله المجال السوفييتي.

ساد الصمت ثانية. ثم أكمل، ببطء قاتلاً :

والمحطات الأرضية لم تحاول الاتصال به، لأنها كانت تخشى كشف طائرة التجسس الأمريكية.

في تلك اللحظة، شعر الحاضرون أن القاعة تحولت إلى ساحة معركة.

لم تعد القضية مجرد طائرة سقطت.

بل أصبحت مواجهة بين إمبراطوريتين تخاف كل منهما من الحقيقة أكثر مما تخاف من الحرب.

أما الصحفيون، فقد أدركوا أنهم يشهدون لحظة تاريخية نادرة؛ لحظة ينكشف فيها العالم الحديث كخشبة مسرح ضخمة، يتبادل فوقها الساسة الأدوار، بينما يموت الأبرياء خلف الستار.

وفي زاوية بعيدة من القاعة، كان أحد المترجمين الشبان يحدق في المتحدثين بذهول. كان قد جاء إلى نيويورك مؤمناً بأن السياسة فن العقل. لكن ما رآه جعله يكتشف أنها، في جوهرها، فن الخوف. الخوف من الهزيمة. الخوف من الفضيحة. الخوف من أن يعترف طرف ما بأنه أخطأ.

نظر إلى الوجوه المتجهمة حوله، ثم تساءل في داخله :

من يقول الحقيقة فعلاً ؟ السوفييت ؟ الأمريكيون ؟

أم أن الحقيقة نفسها ماتت مع ركاب الطائرة فوق مياه سخالين الباردة؟

في الخارج، كانت الأمطار تزداد. أما داخل القاعة، فكان العالم كله يزداد برودة.

ولم يكن أحد يدرك أن تلك الحادثة ستظل سنوات طويلة مثلاً مرعباً على زمنٍ صار فيه الإنسان مجرد رقم صغير بين أسنان السياسة،

وأن الطائرات المدنية نفسها لم تعد بعيدة عن لعبة الجواسيس والصواريخ والرادارات.

لقد كانت الحرب الباردة، في حقيقتها، حرب أعصاب قبل أن تكون حرب سلاح. وكان أكثر ما يرعب فيها أن أحداً لم يكن يثق بأحد.

الأمريكيون يرون في كل حركة سوفيتية مؤامرة. والسوفييت يرون في كل طائرة مدنية قناعاً لطائرة تجسس.

وهكذا، بين خوفٍ وخوف، ضاعت الحقيقة.

وضاع معها مئتان وتسعة وستون إنساناً ، كانوا قبل ساعات فقط يظنون أنهم في رحلة عادية فوق السماء.

امرأة كانت تحلم برؤية ابنها.

رجل أعمال يفكر في صفقة جديدة.

طفل يضغط بأنفه على زجاج النافذة ليرى الغيوم.

ثم فجأة، صاروخ. ضوء. نار. وصمت أبدي.

أما السياسيون ، فقد بقوا يتجادلون فوق المنصات ، يتقاذفون الاتهامات، ويبحث كل منهم عن انتصار إعلامي صغير فوق جبل من الجثث.

وفي نهاية تلك الليلة الطويلة ، خرج المندوب السوفيتي من مبنى الأمم المتحدة بوجه متعب.

كانت نيويورك تلمع تحت المطر. رفع عينيه نحو السماء الداكنة وهمس لنفسه :

نحن لا نحارب أمريكا فقط، نحن نحارب الخوف.

ثم مضى ببطء في الشارع المبلل ، بينما كانت خلفه القاعة الزرقاء ما تزال مضاءة، كأن العالم كله لم ينته بعد من خصومته القديمة.

حين اشتعلت السماء فوق سخالين

فصل من دراما الحرب الباردة

كان الليل في قاعة مجلس الأمن يشبه بئراً عميقةً من الصمت المترقّب، تتدلى فوقها ثريات باردة الضوء، كأنها نجومٌ متعبة عُلقت في سقف العالم. خلف الطاولة الطويلة جلس الرجال بوجوه من حجر، تتوزّع أمامهم ملفات سميكة وأكواب قهوة بردت منذ ساعات، بينما كانت الخرائط العسكرية والصور الرادارية تملأ الشاشات كأنها أشباح حرب لا تريد أن تنتهي.

في تلك اللحظة لم تكن القضية مجرد طائرة كورية سقطت فوق بحرٍ متجمّد، ولم تكن الأرقام وحدها هي التي تتحدث عن المأساة. كان العالم كلّهُ يشعر أن الحرب الباردة، التي ظنّ البعض أنها هدأت قليلاً، قد أخرجت أنيابها من جديد.

وقف المندوب السوفييتي ببطء. كان رجلاً عريض الكتفين، يحمل في عينيه قسوة الثلج السيبيري، وفي صوته صرير قطارات عسكرية طويلة تعبر ليلاً نحو الجبهات البعيدة. رفع نظارته قليلاً، ثم نظر

إلى أعضاء المجلس كما لو كان يحدّق في هيئة محلفين تحاكم التاريخ نفسه.

قال بصوت ثقيل :

إذا صدّقت الرواية الأمريكية، فقولوا لي: لماذا تُترك طائرة التجسس الوهمية حرة في السماء، بينما تُدفع الطائرة الكورية المدنية إلى قلب الخطر؟ لماذا لم تبتعد حين حُدّرت؟ ولماذا أُطفئت أنوارها بالكامل فوق منطقة عسكرية مغلقة؟

ساد الصمت لحظة قصيرة، ثم تابع وهو يضرب بأصابعه على الطاولة:

لقد أُنذرتنا الطائرة مراراً. أرسلنا النداءات بلغات متعددة. حاول الطيارون السوفييت الاقتراب منها وإجبارها على تغيير مسارها، لكنها استمرت في التحليق داخل أجوائنا، وكأنها تسير وفق خطة مرسومة بدقة. لقد أغلق قائدها أجهزة الاستقبال والإرسال، وتعتمد الاقتراب من طائرة التجسس حتى تختلط الإشارات على الرادار. لم يكن ذلك خطأ ملاحه بسيطاً كما تزعمون.

في الجهة المقابلة، كانت المندوبة الأمريكية تجلس مستقيمة الظهر، شديدة التماسك، لكن أصابعها كانت تضغط القلم بعنف يكشف ما تحاول إخفاءه.

كانت تعرف أن العالم لا يصغي للكلمات وحدها، بل لنبرة الصوت، للارتباك الخفي، للعين التي تهرب نصف ثانية.

قالت في داخلها :

إنهم يريدون تحويل الضحايا إلى جواسيس. يريدون دفن المأساة تحت الثلج والخرائط العسكرية،

لكنها لم تُظهر شيئاً. رفعت رأسها ببرود دبلوماسي وقالت :

العالم كله يعلم أن طائرة مدنية كانت تقل مئتين وتسعة وستين إنساناً، بينهم أطفال ونساء وعائلات كاملة، قد أسقطت بصاروخ عسكري. هذه هي الحقيقة الوحيدة التي لا يمكن دفنها تحت ركام البيانات السياسية.

ابتسم المندوب السوفييتي ابتسامة جافة، ثم فتح ملفاً سميكاً أمامه.

الحقيقة ؟ أي حقيقة يا سيدتي ؟ هل الحقيقة هي ما تقوله وكالات الأنباء الأمريكية فقط ؟

رفع مجموعة أوراق ولوح بها قائلاً :

إنني أقدم أمام المجلس ملف الكابتن شون، من محفوظات شرطة الطيران الكورية. رجل فوق الشبهات، نعم، طيار محترف، منضبط، خدم سنوات طويلة دون مخالفة واحدة. والمنطق يقول إن رجلاً كهذا لا يمكن أن يعرض نفسه ومئات الركاب للموت من أجل خطأ ساذج في الملاحة.

توقف قليلاً، ثم انخفض صوته حتى صار أكثر خطورة :

إلا إذا كان ينفذ مهمة أكبر منه.

تحركت الهمسات في القاعة كريح تمر بين أشجار يابسة.

أما المنذوبة الأمريكية فقد شعرت بشيء يشبه الغضب الحارق يصعد في صدرها.

ها هو يفعلها، يحول القبطان إلى عميل، والركاب إلى دروع بشرية،

لكن المنذوب السوفييتي استمر :

نحن بدورنا نملك صوراً فوتوغرافية وتسجيلات صوتية تشير بوضوح إلى علاقة الكابتن شون بالمخابرات المركزية الأمريكية. لم يعد هناك شك في أن الولايات المتحدة اعتادت إرسال طائرات تجسس قرب منشأتنا العسكرية الحساسة. والطائرة الكورية لم تكن سوى جزء من عملية معقدة فوق سخالين.

ثم انحنى قليلاً نحو الميكروفون:

كانت المهمة من شقين :

الأول تصوير مواقع ذات سرية قومية . والثاني حماية طائرة التجسس التي تسللت تحت غطاء الطائرة المدنية.

ارتفعت ضحكة قصيرة من الجانب الأمريكي، لكنها لم تكن ضحكة سخرية خالصة، بل محاولة لتخفيف التوتر الذي صار يخنق الهواء.

قالت المنذوبة الأمريكية :

يبدو أن السيد المندوب السوفييتي يقترب من اتهامنا بأننا نحن من أسقط الطائرة بصاروخ أمريكي !

بعض الوجوه ابتسمت بحذر، لكن المندوب السوفييتي لم يبتسم.

كلا، نحن لا نقول هذا. لكننا نتساءل فقط : ماذا كانت ستفعل الولايات المتحدة لو اخترقت طائرة سوفيتية أجواءها العسكرية لمسافة أربعمئة وثمانين كيلومتراً ؟

ثم أضاف ببطء متعمد :

هل كنتم سترحبون بها بالورود ؟

ساد صمت ثقيل. ذلك النوع من الصمت الذي لا يولد من الاقتناع، بل من الخوف من الإجابة.

في زاوية القاعة، كان أحد الصحفيين يدون ملاحظاته بسرعة. شعر أن ما يسمعه ليس مجرد نقاش سياسي، بل فصل من رواية مظلمة عن عالم يعيش فوق حافة الهاوية النووية.

تذكر أزمة الصواريخ الكوبية. تذكر كيف وقف العالم يوماً على بعد خطوة واحدة من القيامة.

وهنا، داخل القاعة نفسها تقريباً، كانت اللغة القديمة تعود من جديد : الخيانة، التجسس، الردع، الأمن القومي، المجال الجوي، العدو.

أما الحقيقة، فكانت تضيع شيئاً فشيئاً وسط الدخان.

>

في تلك الليلة، لم ينم المندوب السوفييتي بسهولة.

عاد إلى مقر إقامته الرسمي، ووقف طويلاً أمام نافذة تطل على المدينة الأمريكية الغارقة بالأضواء.

كانت نيويورك تبدو له ككائن ضخم لا ينام، مدينة تعرف كيف تبتسم للعالم بينما تخفي في أحشائها آلاف الأسرار.

أشعل سيجارة، ثم جلس وحيداً.

للمرة الأولى منذ بدء الجلسة، سمح لأفكاره أن تتحرر من اللغة الرسمية.

هل كانوا فعلاً أبرياء ؟

سأل نفسه.

كان يعرف أن قادة الجيش في موسكو لا يعترفون بالخطأ بسهولة. ويعرف أيضاً أن الطيار الذي أطلق الصاروخ لم يكن يرى وجوه الركاب، بل نقطة مضيئة على شاشة سوداء.

الحرب الباردة كانت قد علّمت الجميع شيئاً مرعباً :

أن الإنسان حين يتحول إلى هدف على الرادار، يفقد اسمه وملامحه وصوته.

أغمض عينيه للحظة.

تخيل الطائرة الكورية في السماء. المقاعد الضيقة. امرأة نائمة قرب النافذة. طفل يحتق في الغيوم.

مضيفات بيتسمن بارهاق. ورجل في قمرة القيادة يحاول فهم التحذيرات المتقطعة وسط ظلام البحر.

ثم،

وميض الصاروخ.

فتح عينيه بسرعة، كمن يهرب من كابوس.

، لكننا لم نكن نستطيع المخاطرة،

هكذا قال لنفسه.

، في الحرب الباردة، الخطأ الصغير قد يشعل حرباً نووية،

أما المندوبة الأمريكية، فكانت في تلك اللحظة تجلس وحدها في غرفتها بالفندق.

خلعت حذاءها أخيراً، وألقت الملفات فوق الطاولة بعصبية. اقتربت من المرأة. بدا وجهها مرهقاً أكثر مما توقعت.

الحرب الدبلوماسية تستنزف البشر ببطء، مثل نزيف داخلي لا يُرى.

همست لنفسها:

إنهم يكذبون، لكن هل نعرف نحن كل الحقيقة أيضاً؟

كان هذا السؤال هو الأكثر إيلاماً.

فهي تعلم أن أجهزة الاستخبارات كثيراً ما تستخدم المدنيين ستاراً
لمهام سرية. تعلم أن السياسة الدولية لا تعرف البراءة الكاملة.
جلست قرب النافذة، وأخذت تنظر إلى المطر المنهمر فوق
المدينة.

في الأسفل، كانت السيارات تتحرك كخيوط ضوء طويلة. أما
فوق المحيط البعيد، فقد كانت بقايا الطائرة الكورية تستقر في قاع البحر
البارد، ومعها أسرار ربما لن تُكشف أبداً.

>

في الأيام التالية، انقسم العالم إلى معسكرين.
الصحف الأمريكية تحدثت عن جريمة سوفيتية بشعة ضد
الإنسانية. أما الصحف السوفيتية فوصفت الحادث بأنه استفزاز
استخباراتي خطير.

وفي كل بيت تقريباً، كان الناس يتجادلون بالطريقة نفسها التي
تجادل بها الدبلوماسيون في مجلس الأمن.
لكن أحداً لم يكن يملك الحقيقة كاملة.
حتى أهالي الضحايا أنفسهم عاشوا داخل متاهة من الروايات
المتناقضة.

أم كورية عجوز كانت تحتفظ بصورة ابنها، وتقول للصحفيين
وهي تبكي :

ابني لم يكن جاسوساً، كان فقط يريد العودة إلى منزله.
وفي موسكو، كان جندي شاب يقرأ الأخبار بصمت، ثم يهمس
لصديقه:

لو كنت مكان الطيار، هل كنت سأضغط الزر ؟

ذلك السؤال ظل معلقاً فوق العالم كله.

ليس سؤال السياسة فقط، بل سؤال الإنسان حين يجد نفسه بين
الخوف والطاعة والضمير.

>

ومع مرور الزمن، بدأت القضية تتحول إلى واحدة من أكثر حوادث الحرب الباردة غموضاً.

الوثائق السرية . التسجيلات المشوشة. الأوامر العسكرية المتناقضة .كلها صنعت ضباباً كثيفاً حول الحقيقة.

لكن الشيء الوحيد المؤكد كان أن السماء فوق سخالين لم تشهد مجرد إسقاط طائرة.

لقد شهدت سقوط الثقة بين قوتين عظميين كانتا تخشيان بعضهما إلى درجة الجنون.

وفي عالم الخوف، تصبح السماء نفسها ساحة حرب.

هناك، على ارتفاع آلاف الأمتار، لا يعود البشر مجرد مسافرين. بل يتحولون إلى احتمالات سياسية، وإشارات رادار، وأخطاء قاتلة.

أما الحقيقة، فتبقى دائماً آخر ضحية.

الصندوق الأسود

حين تحوّل البحر إلى شاهدٍ صامت على حربٍ لا ترى

لم يكن ذلك اليوم عاصفًا كما قالت الصحف فيما بعد، ولم تكن السماء تموج بالرعود أو الرياح حتى يُقال إن القدر وحده هو الذي أسقط الطائرة الكورية في مياه الشمال الباردة. كان النهار ساكنًا على نحوٍ يثير الريبة، ساكنًا كوجه جنديٍّ يعرف مسبقًا أن الرصاصة ستأتيه، لكنه لا يملك إلا أن ينتظرها.

فوق بحر اليابان، كانت الغيوم الرمادية تنزلق ببطء، كأنها قطع صوفٍ مبتلة، بينما كانت الطائرة الكورية العملاقة تشق السماء بثباتٍ مهيب، مضاءة النوافذ، ممتدة الجناحين كطائرٍ معدنيٍّ ضخم خرج من أحشاء القرن العشرين بكل غروره التكنولوجي.

لم تكن طائرة صغيرة حتى تُضلّها الريح، ولا آلة بدائية حتى يُعذر
كانت واحدة من أحدث الطائرات المدنية في العالم، مزودة بكل ما أنتجته العبقريّة البشرية من أنظمة الملاحة والقيادة الآلية وأجهزة الرادار والاتصال.

ولهذا بالذات، بدا الأمر أكثر رعباً. لأن الإنسان يستطيع أن يغفر للطبيعة غضبها، لكنه يرتعب حين تخونه الآلات التي صنعها بيديه.

في قاعة الأمم المتحدة، كان الصمت ثقيلاً يوم وقف المندوب السوفييتي أمام الحاضرين. عيناه الزجاجيتان كانتا باردتين كتلوج سيبيريا، وصوته يخرج رتيباً كأنه صادر عن آلة لا عن إنسان. قال وهو يرتب أوراقه ببطءٍ مقصود:

إن أكثر الأجهزة دقة معرضة للعطل. هذه حقيقة يعرفها كل مهندس وكل طيار.

ثم رفع رأسه قليلاً وأضاف :

ولدينا شهادة تؤكد أن الطائرة الكورية كانت مطفأة الأنوار تماماً أثناء اختراقها أجواءنا القومية.

ساد الهمس بين المندوبين. بعضهم تبادل النظرات، وبعضهم ظل يحدق في الطاولة الخشبية الطويلة كأن الكلمات تحولت إلى قنابل صغيرة تندرج فوقها.

أما المندوبة الأمريكية، فقد جلست متماسكة على الرغم من التوتر الذي كان يزحف إلى وجهها ببطء. كانت تدرك أن الحرب الباردة لم تعد مجرد صراع أسلحة وصواريخ، بل أصبحت معركة روايات أيضاً؛ من يملك القصة الأقوى يملك العالم.

تابع المندوب السوفييتي حديثه :

وحتى لو افترضنا جدلاً أن أجهزتها تعطلت، فإن ذلك لا ينفي الحقيقة الكبرى، الحقيقة التي أثبتتها الأدلة الحاسمة. توقف لحظة.

كان يعرف كيف يزرع الصمت في القاعة مثل سكين.

ثم قال :

لقد تسللت طائرة تجسس أمريكية إلى أجوائنا. حاولنا إسقاطها، فأخطأنا الهدف، فسقطت الطائرة الكورية.

عند تلك اللحظة، شعر كثيرون أن العالم كله يقف فوق خيط رفيع بين حربٍ نوويةٍ وسلامٍ هشّ.

>

في موسكو، كان الجنرال ألكسي موروزوف يجلس وحيداً في مكتبه المعتم داخل مبنى المخابرات العسكرية.

خلف النافذة، كانت الثلوج تنهمر فوق الشوارع الصامتة، بينما كان دخان سيجارته يرتفع ببطءٍ نحو السقف كروح ضائعة.

قرأ التقرير للمرة الخامسة.

الطائرة دخلت المجال السوفييتي. المقاتلات اعترضتها. الأوامر صدرت. الصاروخ أُطلق.

ثم، الصمت.

لكنه كان يعرف شيئاً لم يكن العالم يعرفه بعد.

كان يعرف أن الطيار الذي ضغط الزر لم يكن متأكداً تماماً مما يراه.

أغمض عينيه متعباً.

منذ ثلاثين عاماً وهو يعمل في الظل، ينتقل بين ملفات الجواسيس والخونة والمنشقين، لكنه للمرة الأولى شعر أن العالم كله يسير أعمى نحو الهاوية.

همس لنفسه :

ماذا لو كانوا جميعاً يكذبون ؟ ماذا لو كانت الحقيقة نفسها قد ماتت ؟

مد يده إلى كأس الفودكا، لكنه لم يشرب.

في تلك الليلة، لم يكن يخاف من الأمريكيين، بل كان يخاف من شيء أكثر قسوة، أن تتحول الأكاذيب المتبادلة إلى حقيقة رسمية، ثم تُبنى عليها قرارات الحرب.

>

بعد يومين، عُقدت جلسة جديدة في الأمم المتحدة.

دخل المندوب السوفييتي هذه المرة وفي عينيه بريق المنتصر. كان يحمل ملفاً أحمر سميگًا وضعه أمامه بحركة محسوبة، ثم قال:

أيها السادة، لدينا دليل جديد.
ارتفعت الرؤوس دفعة واحدة.
فتح الملف ببطء، وأخرج وثيقة مطبوعة.
هذه الوثيقة تؤكد أن إقلاع الطائرة الكورية في الرحلة 007 من
نيويورك قد تأخر عمدًا بحجة إصلاح أجهزة الراديو.
ثم رفع الورقة عاليًا وأضاف:
لقد جرى التأخير كي يتوافق توقيت الرحلة مع أمرين.
هنا توقف. كان يعرف أن الترقب أشد فتكًا من الكلمات.
المندوبية الأمريكية مالت قليلاً إلى الأمام وسألته بحذر :
وما الأمر الثاني يا سيدي ؟
ابتسم ابتسامة خفيفة، أشبه بابتسامة مقامر يعرف الورقة الأخيرة
في اللعبة.

ثم قال :

في اللحظة نفسها التي اقتربت فيها الطائرة الكورية من حدودنا،
كانت الولايات المتحدة تطلق قمرًا صناعيًا للتجسس فوق الأراضي
السوفيتية.

انفجرت القاعة بالضجيج.

أصوات المندوبين اختلطت ببعضها، والمترجمون داخل الكبائن
الزجاجية أخذوا ينقلون الكلمات بسرعة مرتبكة، بينما كانت الصحافة
العالمية تلتقط كل حركة وكل تعبير.

لكن وسط ذلك كله، كان ثمة سؤال صامت لا يجرؤ أحد على
قوله :

هل كانت الطائرة مجرد طائرة مدنية ضلت طريقها ؟ أم أنها
تحولت دون علم ركابها إلى قطعة صغيرة في لعبة مخابرات عملاقة ؟

>

في أحد فنادق نيويورك، جلست الصحفية الكورية، هان سو يون،
تقلب صور الضحايا.

رجل يحمل طفله أمام ديزني لاند. عجوز بيتسم لزوجته. طالب جامعي يحلم بالدراسة.

مضيعة طيران كتبت قبل الرحلة بساعات رسالة إلى أمها تقول فيها :

،حين أعود سنذهب إلى البحر.

وضعت الصور جانباً، وشعرت بغصة حارقة.

العالم كله يتحدث عن الصواريخ والرادارات والأقمار الصناعية، ولا أحد يتحدث عن البشر الذين احترقوا في السماء.

كتبت في دفترها :

حين تبدأ الدول الكبرى الحرب، يصبح الأبرياء مجرد أرقام،

ثم توقفت طويلاً. كانت تعرف أن الحقيقة لن تُقال كاملة أبداً.

الحكومات لا تعترف إلا بما يخدمها، والمخابرات تدفن الأسرار في مقابر أعمق من المحيطات.

لكن شيئاً في داخلها كان يرفض الاستسلام.

كانت تؤمن أن الأرواح التي سقطت فوق البحر لا بد أن تجد من يتذكرها، حتى لو نسيها العالم.

>

ومع اقتراب موعد اللقاء المرتقب بين الرئيسين الأمريكي والسوفييتي لمناقشة الحد من التسلح، بدا واضحاً أن الجميع يريد دفن القضية.

العالم كان خائفاً.

الصواريخ النووية موزعة فوق الأرض كألغام تنتظر خطأً صغيراً لتنفجر.

والسياسيون يعرفون أن حادثة واحدة قد تشعل الكوكب كله.

في الممرات السرية، بدأت أجهزة المخابرات تتحرك بهدوء. رسائل غير معلنة، صفقات صامتة، تفاهات لا تظهر في الصحف.

كان المطلوب بسيطاً ووحشياً في الوقت نفسه :

إخراج الطائرة المنكوبة من دائرة الضوء. نسيانها. دفنها تحت
ركام السياسة.

وبالفعل، بعد السابع من أكتوبر عام 1983، بدأ اسم الرحلة
الكورية يخنفي تدريجياً من نشرات الأخبار، كأن الطائرة لم تكن يوماً
تحمل مئتين وتسعة وستين إنساناً.

كأن البحر ابتلعهم وابتلع معهم الحقيقة.

>

مرت السنوات. تغيرت وجوه القادة، وسقط الاتحاد السوفيتي
نفسه، ذلك العملاق الذي بدا يوماً خالداً كالجليد.

وفي أكتوبر من عام 1993، وصل الرئيس الروسي بوريس
ييلتسين إلى العاصمة الكورية.

كان الخريف بارداً، والأشجار العارية تمتد على جانبي الطريق
كأصابع متعبة تشير إلى الماضي.

رافق ييلتسين صندوق صغير أسود اللون. الصندوق الذي أنكر
السوفييت طويلاً العثور عليه. الصندوق الأسود.

داخل قاعة الاجتماع، كان الصمت أعمق من أي خطاب سياسي.

تقدم ييلتسين ببطء، ووضع الصندوق أمام المسؤولين الكوريين.

وفي تلك اللحظة، شعر الجميع أن شبح الطائرة عاد من قاع البحر
أخيراً.

قال ييلتسين بصوت خافت :

لقد حان الوقت كي تعرفوا الحقيقة.

لم تكن الجملة اعتذاراً كاملاً، لكنها كانت اعترافاً ثقيلاً خرج بعد
سنوات من الإنكار والخوف.

أما الصحفية هان سو يون، التي حضرت المشهد وقد اشتعل
الشيب في أطراف شعرها، فقد شعرت أن قلبها يرتجف. تذكرت الصور
القديمة. الطفلة. العجوز. رسالة المضيئة إلى أمها.

وتساءلت في داخلها :

كم يحتاج العالم من الوقت حتى يعترف بخطاياها ؟

>

في تلك الليلة، جلست وحدها قرب نافذة الفندق.
كانت سيول مضاءة بألوان لا تنتهي، لكن عينيها ظلتا معلقتين
ببحرٍ بعيد لا تراه.
البحر الذي احتفظ بالأصوات الأخيرة للركاب. البحر الذي
سقطت فيه الأحلام والحقائب ورسائل الحب.
أغمضت عينيها وتخيلت المشهد الأخير داخل الطائرة.
امرأة تضم طفلها. رجل ينظر من النافذة فلا يرى إلا الظلام.
مضيئة تحاول أن تبتسم رغم الذعر. ثم الضوء الأبيض الهائل. ثم العدم.
شعرت بقشعريرة تسري في جسدها.
وفهمت أخيرًا أن الحروب لا تبدأ حين تُطلق الصواريخ فقط، بل
تبدأ قبل ذلك بكثير،
حين تتعلم الدول أن ترى البشر أرقامًا، والطائرات أوراقًا،
والحقيقة مجرد أداة تفاوض.
أما السماء، فقد بقيت منذ ذلك اليوم أكثر حزنًا.
لأنها شهدت كيف يستطيع الإنسان، بكل علمه وتقدمه، أن يحول
التكنولوجيا التي صنعت لتقريب العالم، إلى سلاحٍ آخر من أسلحة
الخوف.
ولأن البحر، مهما ابتلع من أسرار، لا ينسى أبدًا.